يوميات

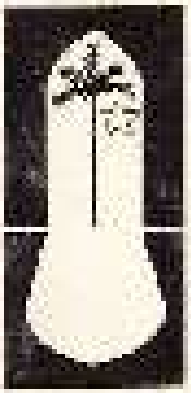

من أوراق النيل

يوسف القعيد

المحتوى

- تعارف ٥
- بر مصر بر الشام ٤١
- صباح الخير يا صعيد مصر ١٢
- اعترافات روائي ٠٣
- العيش والملح ٨٣
- في بيت عبد الناصر ٥٤
- لغة النشالين والحرامية ٣٥
- وزير محظوظ وشعب قليل البخت ١٦
- نوبل يدخل الحارة المصري ٧٦
- يوم خاص في بيت نجيب محفوظ ٤٧
- القراءة في خطر ٠٨
- فلوس الغلابة ٦٨
- واالله زمان يا دمشق ٣٩
- سميح مصر درويش فلسطين ٢٠١
- مصريون في بلاد الشام ٨٠١
- وجوه دمشقية ٥١١
- الحنين إلى الأوطان ٥٢١

- زيجات مصرية ٤٣١
- رصيف شارع مصري ٣٤١
- ٩٨٩١ والعبور إلى الأمل! ١٥١
- الضاحك الباكي ٨٥١
- فلسطينيون في أرض الكنانة ٧٦١
- حقوق الإنسان بين أميركا وفلسطين ٤٧١
- برلمان القراء ٣٨١
- إزالة آثار عدوان نوبل ٣٩١
- الحزن المقيم ٤٠٢
- قصص تبحث عن مؤلف ٤١٢
- المهاجرون ١٢٢
- اكتشاف مصر ٧٢٢
- على رأي المثل ٢٣٢
- أحزان سودانية ٧٣٢
- العواطلية ٢٤٢
- رؤية الهلال ٨٤٢
- قرة العين في رمضان والعيدين ٣٥٢

تعارف

** سبتمبر المصري من سنة ٨٨٩١، آخر أيام الصيف الحارة، وأول تباشير الخريف، أحب فصول السنة إلى نفسي، فصل الأحزان والتأملات ورحلات الاستبطان الداخلي، يخلو من عرق الصيف، وملابس الشتاء التي تشكل إنساناً فوق الإنسان، ولا يدعي لنفسه زهو الطبيعة في الربيع، الذي يصل في بعض الأحيان إلى حدود الغرور.

تركت مكتبي بدار الهلال وقت العصاري، في طريقي إلى بيتي بمدينة نصر، رحلة كل يوم، أقوم بها مرتين، الأولي في الصباح. أترك مدينة نصر ومصر الجديدة ورائي، وتكون وجهتي السيدة زينب، مروراً بسكان القبور، مدينة الموتى، على يميني، والدويقة ومنشية ناصر، حيث يعيش جامعو قمامة القاهرة على يساري.

إنها أحزمة البؤس التي تلف حول القاهرة، من كل جانب، في هذه الأحياء ما يشدني، سكانها قادمون لتوهم من الريف، طردتهم القرى، ولم تستقبلهم القاهرة، لا مفر أمامهم سوى الحياة، على الهوامش، في تجمعات مصنوعة من

القمامة والصفيح وهياكل السيارات القديمة، هوامش بشرية تسكن هوامش الأحياء.

في رحلة الصباح، تكزن الأرض ملأي بالحليب، ترتجل الهدوء الأول، وتحاول أن تزرع في مقلتيها الحلم البعيد، وفي رحلة العصاري، تكون نفس الأرض، ملأى بالهتافات المخنوقة لكائنات لم تتشكل بعد.

على الرصيف، كتل من الرجالة، يسمونها سوق الرجالة، أياد تبحث عن العمل ولا عمل. تعبير صارخ عن البطالة، التي تطل برأسها توشك أن تهدد كل ما في مصر. أنني عيون الرجالة تحدق في، ما أن تبطئ السيارة، لأي سبب من الأسباب، حتى يهجمون على ، يتصورون جئت أبحث عن عامل، يهجمون على السيارة، يسدون الضوء والهواء وكل مفردات الحياة.

من فوهة الكهوف الرجال وحولهم، الدخان من كل جانب، لكن العاصفة تطل من وراء تعطلهم الساذج، والمشكلة الحقيقية أنه لا أحد يرغب في قراءة مفردات هذه العاصفة التي تلوح في الأفق أبدا.

وفي داخل العمارات القريبة، ينام الأغنياء متخمون حتى الأطراف، يكادون أن يموتوا، ولكن من التخمة، وهنا في سوق الرجالة، يهدد الفقراء الموت ولكن من الجوع هذه المرة.

عدت إلى بيتي، لأكتشف أن نبيل خوري قد اتصل بي أكثر من مرة، من باريس، وفي المرة الأخيرة قال إنه سيعاود الاتصال من جديد.

بعد قليل يأتي صوته من باريس، أكثر وضوحا من الأصوات القادمة من القاهرة، كلمات قليلة، وعبارات محددة، يصل إلى ما يريد من أقصر الطرق الممكنة، ويدخل في قلب الموضوع مباشرة بعيدا عن الطرطشه العاطفية التي نمارسها في مصر كثيرا.

قال لي. إن الصفحة الأخيرة من المجلة أصبحت بدون كاتب، خلافات، ومشاكل، وهموم لا علاقة لي بها، ولكن المهم أنني من المفروض أن أتولى كتابتها، وابتداء من هذا الأسبوع.

لا شئ يسعدني في هذا العالم مثل الكتابة، يخيل إلـي عندما أمسك بالقلم، أنني جئت إلى الدنيا من أجل أن أكـون كاتبا، ذلك هو الجوهر، وما عداه من التفاصيل لا قيمة لها.

سريعا ما اتفقنا، في نفس المكالمة، سيكون عنـوان الصفحة «من أوراق النيل» وسـأملي علـى المجلـة غـداً المحاولة الأولى، وما إن انتهيت من المكالمة، حتى كنت قـد بدأت في الذهن، عملية الكتابة، أما التدوين الأخير فهو يأتي في النهاية، بعد أن يكون المقال قد كتب علـى ورق الـذهن الخاص.

ولأنني أقدس العمل، وأعتبر أن القدرة على أن أعمل، هي إعلاء لشأن الإنسان، والتعبير الوحيد والأساسـي عنـه إزاء هذا العالم، ففي الموعد الذي اتفقنا عليه، كـان المقـال جاهزا، لكي أمليه تليفونيا على المستقبل في باريس.

وقد استمرت الصفحة، حتى اللحظة الأخيرة من عمر المستقبل، عندما توقفت عن الصدور في باريس في أبريـل ١٩٨٩، بعد أزمة مالية عنيفة تعرضت المجلة لها، وقيل أن الأزمة حدثت كنوع من العقوبة الموجهة ضد المجلـة، لأن

زمان اقتسام الغنائم الصحفية، كان قد أطل على الصحافة العربية المهاجرة في أوربا.

وكانت علاقتي بالمستقبل قد بدأت قبل ذلك بسنوات على نحو أرويه هنا، حتى تكتمل القصة، كنت أحضر الاحتفال بذكرى تأسيس حزب التجمع التقدمي الوحدوي، في مقره الرئيسي، عندما انتحى بي جانبا الأستاذ بهاء، وهذا هو الاسم الذي نحب أن ننادي به أستاذنا وأخانا وصديقنا وحبيب قلوبنا: أحمد بهاء الدين.. شفاه الله من مرضه.

قال لي بهاء إنه كان يبحث عني منذ فترة، لأنه رشحني لكي أصبح مراسل مجلة المستقبل التي تصدر في باريس في القاهرة، وكان بهاء أهم كتابها في ذلك الوقت.

اتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي في مكتبه بالأهرام. «وهو المكتب الذي جرى له ما جرى بعد مرضه» ولكن تلك قصه أخرى، لا بد وأن تدون كاملة ذات يوم» في الموعد كنت معه، كان يراجع عموده اليومي في الصفحة الأخيرة، وهو العمود الذي كان يشكل الضمير المصري والعربي في أنفي وأعذب وأنصح تجلياته.

كان الاتفاق بسيطاً، رسالة أسبوعية تغطى أنشطة الحياة في مصر، سياسية وثقافية واقتصادية، مقابل مبلغ من المال، أخجل من تدوينه من شدة تواضعه.

وحكاية الكتابة في صحف العرب، سواء التي تصدر في بعض العواصم العربية، أو في المهجر الأوربي. كانت قد أصبحت من مفردات الحياة، لنا، لأكثر من سبب.

فبعد أن شط السادات، وقفز بمفرده قفزته الأخيرة نحو المجهول، كنا في حاجة إلى منابر وأمكنة، ننفس فيها عن رفضنا المشروع لكل ما فعله، كنت أفعل هذا من أجل مصر أولا، لأنني كنت أدرك أن ما يقوم به السادات، لن تدفع ثمنه سوى مصر، سواء على المدى القريب أو البعيد.

وأخطر ما جرى لمصر بعد كامب ديفيد، أن مصر القائدة والرائدة، تحولت إلى واحدة من الدول العربية الأخرى، كان هناك اعتبار آخر لفكرة الكتابة في الصحف العربية، إلا وهو تلك المسافة الرهيبة بين الأجور وتكاليف الحياة، خاصة بالنسبة لمثلي الذي لا يحصل سوى على مرتبه من جهة عمله، مع رفض مبدئي وقاطع لكل أموال الأبواب الخلفية في الصحافة، وما أكثرها.

كان هناك من وجد خلاصه في ترك مصر والسفر إلى الدول العربية، حيث يجد حلاً سريعًا لأزمته الفردية، وهناك من تمكن من حل الأزمة، وهناك من قتله القهر والكمد، ولكني كنت وما زلت أرفض فكرة الهجرة عن مصر مهما كانت الأسباب.

إن مجرد انتقال، خلف الله البرتاوي خلف الله، بطل روايتي ((أيام الجفاس)) من محافظة الدقهلية، إلى محافظة البحيرة، والمحافظتان من محافظات الوجه البحري، جعلني أقدم الأمر على أنه مأساة كبيرة أوصلت البطل إلى الجنون، فما بالك بترك الوطن؟

بقيت في مصر، كان لا بد من مخرج ما من الأزمة، هكذا جاء عرض المستقبل في الوقت المناسب، وكانت تستهويني الكتابة فيها، ذلك أن المجلة كانت تقول كلاماً يصادف هوى في نفسي، وهذا الهوى جعلني أتغاضى عن بعض الاعتبارات المالية الأخرى.

وإن كنت قد أدركت، بعد ذلك، أننا نحن المصريين، نقدم في هذا الجزء من العالم، أفضل ما لدينا، ثم لا نحصل في النهاية سوى على فضلات الفضلات، إن أي مشروع

جرى في الشرق الأوسط ابتداء من البترول، وانتهاء بصحافة المهجر، يؤكد هذا المعنى.

في أي مشروع، طرف يعمل، وهم أبناء مصر، أحفاد بناءة الأهرامات ومبدعي أبي الهول، الذين تحدوا الأبدية نفسها، وهناك من يجني الأرباح كاملة، ولا بد وأن يكون غير مصري وفي حالة الصحافة فهم الشوام، ولست شوفينيا ولا قطريا في ذلك لسبب بسيط أن هذا ما جرى فعلاً على أرض الواقع.

من يومها وأنا أراسل المستقبل حتى لحظة إغلاقها المؤسفة، وعندما أغلقت، كنت الوحيد من بين مراسليها ومحرريها الذي لم أحصل حتى لحظة كتابة هذه السطور على مكافأة نهاية الخدمة.

أذكر أنني اتصلت من القاهرة بصديق مشترك، بيني وبين نبيل خوري، أريد الحصول منه على رقم تليفون نبيل، من أجل الاتصال به، وكان قد مضى أكثر من السنة على إغلاق المجلة، دون الحصول على هذه المكافأة، التي حصل عليها حتى حارس مبني المجلة في باريس.

فوجئت بالصديق المشترك، يقول لي أنه لن يعطيني رقم التليفون، وعندما سألته عن السبب، قال لي إنني لن أحصل على شئ عدت أسأله عن السبب من جديد، فجاء رده في كلمتين فقط.

- لإنك مصري.

وهناك كلمات، تصبح دائماً قادرة أن ترقي إلى مستوى القانون الذي يحرك الأشياء، يبدو لي أن مصريتنا، التي كانت البدء في تجربة المنطقة والعالم الثالث كله، توشك أن تصبح لعنة تطارد الإنسان.

بعد تجربة المستقبل، بما لها وما عليها، والتي وصلت إلى ختامها بإغلاق المجلة، كان قرارى الذي لن أتراجع عنه أبدا، ستكون المستقبل آخر مجلة أرسلها مهما كانت الظروف.

ورغم العروض، ما زلت متمسكًا لهذا الموقف.

وأرجو أن تظل عندي القدرة على الرفض مستقبلاً مهما كانت الإغراءات والصعوبات والمشاكل.

يوسف القعيد

بر مصر بر الشام

عندما بدأت ترجمة روايتي ((الحرب في بر مصر)) إلى الإنجليزية ، اتصلت بي المترجمة وحدثني المراجع وكتبت لي الدكتورة التي كلفتها دار النشر بتقديم الطبعة بالإنكليزية من الرواية.

كان السؤال واحداً:

- ما معنى كلمة بر؟!

قالوا لم نجد للكلمة مرادفاً باللغة الإنجليزية، السؤال يلد السؤال، ولا إجابة. هل الكلمة تعني الأرض؟ أقول لا هل تشير إلى الشاطئ؟ أرد أن هناك فارقا بين البر والشاطئ احترت، لجأت إلى مكتبتي، تلك الغرفة المبطنة بالمكتب من كل جانب، من الأرض وحتى السقف، رحت أبحث في معاجم البلدان وقواميس العمران وفهارس الأوطان، وعرجت في طريقي على بحار اللغة العربية باحثا عن معنى كلمة بر.

ونحن عندما يضنينا البحث عن أمر ما، ربما لا نجده، ولكننا في رحلة البحث قد نجد أنفسنا فجأة ودون أن ندري، في مواجهة ما لم نكن نبحث عنه.

وهنا ما جرى معي.

فالذين كانوا يترجمون الرواية كانت لديهم برامج ومواعيد وعقود وأوراق، لذلك نفذ صبرهم سريعاً، واعتبروا كلمة بر هي نفسها كلمة أرض، وهكذا أصبح عنوان الرواية في الإنكليزية هو ((الحرب على أرض مصر)).

لكن الرحلة لم تكن قد انتهت بعد بالنسبة لي، صحيح أنني عدت من الرحلة بين الأحرف والنقط والفواصل والجمل الاعتراضية دون العثور على ضالتي، ولكن وجدت نفسي أمام ما لم أكن أبحث عنه، اكتشفت أنه ما من مرة يكتب فيها بر مصر حتى تكون الجملة التالية هي بر الشام، قلت لنفسي لا بد وأن الجملتين قد قيلتا في زمن واحد وتوقيت وحيد وظروف شديدة التوحد، سألت الورق والحبر ولم أجد الإجابة لجأت إلى الشيوخ والكبار، صناديق الحكمة المتحركة على الأرض، ابتسموا وهم ينفضون التراب عن الذكريات القديمة استغربوا، لأن حقائق الأزمنة القديمة والجميلة والبريئة ما زالت قادرة على إثارة دهشة واحد من الرجال الجدد كان سؤالي هل ثمة علاقة بين البرين؟ هل إطلاق الكلمة نفسها جاء صدفة، أم أن وراء الأمر حكمة ما؟!

يتحدث الشيوخ، تتشعب الأصوات إلى حدود لا نهايات لها أبداً، يقولون.

إن بر الشام هو الذى يبدأ بفلسطين ويصل إلى حدود تركيا عندما كنا نتحدث عنه في السنوات الأولى من هذا القرن، كنا نقصد الدول التي أصبحت دول الشام، وكان هناك قطار يتحرك من القاهرة ويصل إلى كل هذه البلدان. وكان وكنا وكانوا.

خزانة الذكريات لا تنتهي

فإن كان أهل بر مصر قد برعوا في الزراعة، وارتبطوا بالأرض، يقبلونها صباح مساء، حتى تجود بسرها وتخرج خيراتها، فإن أهل الشام قد أمسكوا بالجانب الآخر من صناعة الحضارة وإبداعها، أي التجارة، وما بين زراعة بر مصر، وتجارة بر الشام،كانت هناك الصناعة أيضا. في بر مصر ينشبون فى تراب الأرض يستنبتون منه الأخضر ويستقطرون الماء، وفي بر الشام يمسكون التراب فيتحول في أياديهم إلى ذهب.

وكان السفر في ذلك الزمان يعني السفر إلى بر الشام، والعودة هي العودة من بر الشام، وحتى منتصف قرننا العاثر

الحظ، وفي معظم الأفلام السينمائية المصرية، فإن البطل عندما كان يضيق به الحال ويقرر أنه لا مفر من السفر وتغيير المكان، فلا بد أن يكون هذا المكان الآخر هو بر الشام، حيث يشاهد بعينيه وهو على قيد الحياة جنة الله على الأرض، ويحلق بين الماء والخضرة والوجه الحسن، ويعود بعد أن يكون قد غسل داخله من هموم الحياة ومتاعبها، قالوا إن هناك تزاوجاً فريداً بين البرين، تزاوج بين حر مصر ونسائم الشام، بين السهل المنبسط والجبل العالي الذي يفصل ما بين الأرض والسماء، بين بعض رخات المطر العابرة في الجنوب وأيام الثلوج البيضاء في الشمال.

لا أحب الاستطراد كثيراً في نقش هذه الصورة الجميلة حتى لا أبدوا مثل البخيل الذي أوهم نفسه بالإفلاس، فبدأ عملية بحث في دفاتره القديمة علها تعوضه عن الشعور الذي يحاول أن يثبته لنفسه بإفلاس الحاضر.. ولكني عندما أصحو من الحلم العربي الأخضر وانظر حولي الآن اكتشف أن أبناء جيلي يقولون مصر ولا يذكرون كلمة بر أبداً، وأن كلمتي بر مصر وبر الشام أصبحتا من تراث عصور مضت وولت هاربة ولن تعود ولم نعد نحن قادرين على استعادتها أبداً.

ومن يجرؤ حتى على الحلم بهذه الاستعادة سيتم ضبطه على الفور مرتكبًا جريمة الحلم في زمن صدرت فيه التعليمات والأوامر الصريحة أن الحلم خروج على شروط الواقع الموضوعية والقاسية، دون أن يكون هناك إذن مسبق بالحلم!

الآن حدود وسدود. شرطة وجمارك وجوازات مطارات ومحطات وموانئ، خفر سواحل خفر موانئ وخفر حدود والمواطن العربي مسكين يبدو أمام هذه السلطات المرئية، وغيرها من السلطات غير المرئية، وما أكثر غير المرئي، متهمًا حتى يثبت العكس، يمكن أن يحدث له أي شئ وإن يحدث له كل شيء.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فها هو الكيان الصهيوني الذي تمت زراعته في أرض فلسطين العربية، كيان غريب وشاذ ، البنادق والدبابات والعربات المصفحة والمحطات النووية والخناجر والسكاكين. جيش يضحكون علينا عندما يسمونه مجتمع، وعملية اغتصاب ليلية ويومية مستمرة يشيرون إليها من باب التضليل اللغوي اعتبارها دولة، لقد تحول الجليل إلى زنازين وسجون ومعتقلات، لكي تفتح

أبواب العالم على المأسي والحروب التي لا نعرف متى تنتهي أبداً.

وهذا الكيان جعل الحلم العربي حلمين، والأرض أرضين، والبحر بحرين، والسماء العربية سماءين، وباعد ما بين بر مصر وبر الشام، ولا اعتقد أن جيلنا سيستحق الانتساب لعروبته إن ودع الحياة دون أن ينتهي هذا الموضع الاستثنائي الطارئ ويعود الأمر الطبيعي.

أعود على جناح كلمات الشيوخ إلى الزمان الحالي من الزمان الجميل الذي مضى والذي نعجز عن استعادته ولو بالخيال فقط، انظر إلى ما جرى، انظر إلى ما وقع، وأقول لنفسي لو أن هذا فقط ما فعله الاستعمار بنا لأصبح وحده كافياً لكي ندرك أي لعنة ابتلينا بها. هل أكتب أنا أيضا كلمة استعمار في وصف الذين جاؤوا، وعندما رحلوا تركوا وكيلهم الذي لا بد وأن يرحل ذات يوم؟! قد تبدو لغتنا العربية خداعة، إن معارك الواقع لا تنتهي ومفردات اللغة لا تريد أن تعرف الاستقرار، ونحن عاجزون عن إعادة صياغة حروف كلماتنا العربية بكل أدوات المعجزة.

أصبحنا أسرى تعبيراتهم، ولا مفر. من الوريد إلى الحدود، من المطارات إلى الموانى إلى المخافر إلى

الأوطان. ولكن الأمل ما زال، أقول لنفسي ما دامت في بر مصر ذاكرة واحدة، ما زالت حية وناضبة بذكريات بالغة القدم والبراءة والقدرة على الإدهاش عن بر مصر وبر الشام، فتلك هي بداية الصوت القادر على أن يزحزح الصخرة الأولى قليلاً، وما أن نتمكن من زحزحة الجبل من مكانه، حتى يقترب الوطن الذي حاولوا إبعاده حتى عن
مناطق أحلامنا.

ونصبح التخوم على مدى الشوق، وتلك هي بداية البدايات، بداية الميلاد الجديد.

٠١ سبتمبر ٨٨٩١

صباح الخير يا صعيد مصر

دير مواس واحدة من مدن صعيد مصر، تقع بالتحديد في منتصف المسافة بين مدينة المنيا ومدينة أسيوط، وأن كانت أسيوط هي عاصمة الصعيد السياسية في العصر الحديث، فإن طموح المنيا أن تشكل العاصمة الدينية والاجتماعية، أي أن تكون مقراً لبعض جماعات العنف والتطوف والإرهاب الذين يعملون باسم الدين والدين برئ منهم، من قبل، ومن بعد.

وصعيد مصر، الذي يشيرون إليه في لغات العالم بأنه جنوب مصر ، أو مصر السفلى، يعني بالنسبة لي مخزن الرجولة الحقيقي في مصر، والمجتمع الذي ظل حتى مشارف زمن الانفتاح الاقتصادي، مجتمعًا واقياً لمصر من هذا التحول الجارف والعنيف، أي أنه حاول أن يحمي المجتمع المصري والواقع المصري من هذا التغيير الذي أستهدف روح مصر وضميرها، ونجح في الهدف الذي جاء من أجله من الغرب.

والواقع في الصعيد شديد القسوة والوعورة، نهر يسبح ويزحف من الجنوب باتجاه الشمال وواد ضيق، عبارة عن

شريط من الخضرة حول النهر، والاثنان معاً، النهر والوادي، تحيط بهما من كل جانب صحارى واسعة، بحار من الرمال التي لا أول لها ولا أخر هذا الواقع تصله بالشمال سكة حديد وطريق بري صغير ونهر النيل، ولذلك كانت العزلة الشديدة هي الطابع الأساسي الذي ميز تطور هذا الواقع على مر التاريخ المصري.

ولذلك عندما نجح المستعمرون والمحتلون في احتلال مصر، سواء كانوا من الفرنسيين أو الإنجليز أو العثمانيين، فقد كانت آخر الحدود التي وصلوا إليها الجيزة في جنوب مدينة القاهرة، أما الصعيد فقد بقي مغلقاً في وجوههم تماماً. لم ينجح أحد في التسلل إليه أبداً.

غير أن هذا التميز إنما يتم في سياق أن هذا الصعيد جزء أصيل وفريد من مصر كلها، فالتشابه بين قرى الصعيد وقرى الوجه البحري ودلتا نهر النيل كثير، ومن الصعب إحصاؤه، والملامح المشتركة بين مدن الصعيد الصغيرة ومراكزه وبنادره ومدن الوجه البحري والدلتا ومراكزها وبنادرها قائمة وموجودة.

فماذا جرى في مدينة دير مواس مؤخراً حتى أصبحت علماً يرد ذكره في كل إذاعات العالم ووكالات الأنباء بعد أن كانت مدينة منسية في منتصف الصعيد المصري تماماً، والذي يمتد جنوب مدينة القاهرة حوالي ألف كيلو متر؟!

الذي حدث أنه سرت في البلدة شائعة تقول أن أحد البيوت المهجورة منذ فترة في المدينة سيتم تحويله إلى كنيسة في القريب العاجل. وأن الحكومة لم تصرح بتحويل هذا البيت القديم المهجور إلى كنيسة ومما أعطي هذه المسألة قوة التصديق، أن مالك هذا البيت أحد القسس من أبناء ديرمواس.

في الأسبوع الماضي قرر بعض الشبان من المتطرفين منع حدوث هذا، ولو لجأوا إلى القوة المسلحة، على الرغم من أن الجهات المعنية في الكنيسة القبطية أعلنت بوضوح تام أن الشائعة التي أطلقها مجهولون عن قرب تحويل البيت إلى كنيسة لا أساس لها من الصحة، وقد كررت السلطات الدينية هذا الإعلان أكثر من مرة وبصورة تضمن بها وصوله إلى أكبر عدد من الناس.

وتحرك الشبان، وبعد أن رفضوا الاستماع إلى التأكيدات الكثيرة بعد تحويل البيت إلى كنيسة، ومعهم السلاح

واحتلوا هذا البيت. وقد جاء التحرك بعد أداء صلاة الجمعة مباشرة وأعلنوا أنهم لن يتركوا هذا المبنـي أبـداً والهدف الوحيد من الاستيلاء عليه والبقاء فيه هو منع تحويلـه إلـى

كنيسة.. بعد احتلال البيت بنجاح تام، ودون أية مقاومة تـذكر

من أصحاب البيت، كان لا بد من تحريك الحكومة ومنع هذا العدوان الذي لا يوجد ما يبرره أبداً. ووقع الاشتباك بين قوات الأمن المصرية وأفراد هذه الجماعات. وقد أسفر عن سقوط قتيلين وعدد من الجرحى لا يقلون عن حوالي ثلاثين جريحًا. وبدأت النيابة بالتحقيق، فاتضح أن الذي أطلق الشائعة – لأول مرة – هم بعض السياح الأجانب عن مصر والذين يزورون الصعيد بكثرة شديدة في هذه الأيام. وإن هؤلاء السياح من إسرائيل بالتحديد، وقد أطلقوا الشائعة وهربوا قبل أن يتم أي تحرك من أي من الطرفين، واتضح من التحقيق أن كل من المسيحيين من أبناء البلدة لم يشاركوا في الاشتباك بين المتطرفين وقوات الأمن.

وهذا الذي جرى في دير مواس نموذج قابل للتكرار في أكثر من مكان من مصر، ففي مصر – ولا بد من

الاعتراف بذلك – مسلمون يشكلون الأغلبية الساحقة، وفيها أيضاً مسيحيون فيهم كل ملامح الأقليات النفسية وتصرفاتهم القريبة من ردود الأفعال عادة، هذه الردود التي تضخم كثيراً من أفعال الطرف الآخر وتحملها الكثير من الدلالات والتفسيرات التي قد لا تحتملها مثل هذه التصرفات، ومهما كان في هذه التصرفات من حسن النوايا فإن حسن النية في ظل هذه الأجواء لا يكفي أبداً.

وهناك الطرف الذي يحاول كل يوم إشعال الموقف وله مصالح كثيرة في هذا، وأقصد الطرف الإسرائيلي الذي يتخذ من معاهدة كامب ديفيد شعاراً للتسلل إلى مصر، في الليل وفي النهار، ويلعب على الورقة الطائفية دائماً في مصر.

ولكن هذا في جانب، وفي الجانب الأكثر أهمية، الطريقة التي نعالج بها قضية البعد الطائفي في مصر، وهناك دائماً حساسية شديدة من الحديث في هذا الموضوع، ومحاولات دائمة لإخفائه وإبعاده عن النور والعلن والهواء والمناقشات المفتوحة، مع أن العلنية والصراحة في النور والهواء أفضل من إبعاده إلى سراديب السرية وضبابية التناولات الغامضة.

وما زلت أذكر أنه حدثت في زمن الاستعمار البريطاني محاولة لضرب الوحدة الوطنية المصرية، ولكن جرى تفاديها بدرجة عالية من الوضوح وقيل في صحف ذلك الزمان، كل ما يمكن أن يقال عن هذا الموضوع، تحدث وكتب المسلمون واستفاضوا، وقال المسيحيون كل ما عندهم تقريبًا دون حساسية ودون خوف، فالمسالة الطائفية واحدة من أمور الحياة اليومية، والتخفي والسرية والحساسية في تناولها من الأمور الضارة تمامًا لكل الأطراف.

وبعد هذا الذي جرى في بدايات القرن العشرين، وبعد تناوله في العلن وبوضوح، ظلت مصر أمنة أكثر من نصف قرن من هذا الباب فالمصري بطبعه أقرب إلى السماحة وحب الآخرين ونبذ العنف وهو أبعد إنسان عن التعصب أياً كان هذا التعصب.

والإنسان المصري – خصوصًا في زماننا هذا – يريد أن يعيش حياته على ظهر هذه الدنيا، يريد أن يحصل على نصيبه كاملاً قبل أن يأتي إليه الموت ولذلك لا يحب إثارة المشاكل والعصبيات والهموم اليومية المتجددة.

لكن المشكلة في مصر الآن، أنه ما إن يبدأ حادث من هذا النوع، حتى تبدأ على الفور المواجهة الأمنيةما دام الشباب في أيديهم سلاح لا بد وأن يكون هناك سلاح في مواجهتهم، ومن الطبيعي أن سلاح الدولة هو الأكثر وهو الأقوى والأفعل ولذلك تنتصر قوات الدولة وبعد هذا الانتصار يكون القرار بقفل الموضوع كله وعدم الكلام فيه، وما دام قد مضى الأمر فلماذا تعيد فتحه مرة أخرى؟ لماذا نتحدث فيه من جديد؟ ويظل الحال هكذا إلى أن يقع حادث آخر فتحدث المواجهة الدامية نفسها، وبعدها تقفل كل الملفات، وهكذا..

والخطأ في هذه الحالة يقع مرتين، فالمواجهة الأمنية تترك وراءها الكثير من الجراح التي لا تنتهي أبداً، وتخلف بعدها من علامات الثأر وحكاياته، والعديد من القصص التي تحاول فتح الموضوع من جديد، والخطأ الثاني أن هذه الطريقة تعتمد على أسلوب الفعل ورد الفعل فقط، وهي تحرم الدولة المصرية من أن تكون لها استراتيجية شاملة في التعامل مع هذا الخطر الحقيقي الذي يطل برأسه في الأوقات

الصعبة والعصبية محاولاً تهديد كل ما في مصر من أخضر وكل ما في مصر من يابس.

هل نسينا الجملة التي قالها هنري كيسنجر بعد التوقيع على كامب ديفيد؟ لقد قال بالحرف الواحد: إنه لن يأمن على إسرائيل من مصر ما لم تنشغل مصر في حرب أخرى تكون هي البديل الطبيعي لحروبها مع إسرائيل التي تكررت مرة واحدة على الأقل كل عشر سنوات. وقدم كيسنجر نموذج الحروب المصرية العربية كبديل لا بد منه للحروب مع إسرائيل، ولأن ذلك لم يفلح فلا بد وأنهم فتحوا باب إشعال الحروب الداخلية في مصر، ومصر ترفض مثل هذا العنف ومثل تلك الحروب، ولكنه رفض الفعل ورد الفعل ويبقي الرفض الاستراتيجي الغائب والذي يمارس بعد.. الرفض البعيد المدى، وهذا الرفض لن يتحقق سوى بإخراج الأمر كله إلى النور والضوء والهواء بعيداً عن السراديب المغلقة وضباب الأقبية.

ففي مثل هذه القضية، يكون الرأي العام الواعي والمستنير هو بر الأمان الوحيد. ليس لمصر وحدها، ولكن للوطن العربي كله.

٧١ سبتمبر ٨٨٩١

اعترافات روائي

..عجيب أمر الروائيين العرب، ما أكثر ما يكتبونه عن الآخرين، وما أقل، بل ما أندر، ما يكتبونه عن أنفسهم، صحيح أن بلزاك قال إنه وجد أقصى درجة من الحرية في الكتابة عن نفسه، وهو يفعل ذلك عندما كان يكتب عن الآخرين.

لكن ما أقصده بالكتابة عن الذات المبدعة للروائي العربي المعاصر أمر آخر، أعني كتابة السيرة الذاتية أو الترجمة الشخصية. أو كتابة تجربة العملية الإبداعية الروائية من خلال تجارب هذا الروائي أو ذاك.

هذا على الرغم من أن البدايات الأولى في الاجتهاد الروائي العربي كانت كلها – أو معظمها – تجارب في كتابة السيرة الذاتية. سواء أكانت «زينب» محمد حسين هيكل، أم «أيام» طه حسين، أم يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم، أم ((إبراهيم الكاتب)) لإبراهيم عبد القادر المازني. وهذه كلها نصوص روائية لبست ثوب السيرة الذاتية.

الأجيال التالية في المغامرة الروائية العربية حاولت الابتعاد تماما عن ذواتها ونفسياتها، واستبدلت هذا بالكتابة

عن الآخرين. وأصبح ضمير الغائب «هو» هو أكثر الضمائر حضوراً في التجارب الروائية العربية.

صحيح أن هناك محاولة جريئة قام بها جمال الغيطاني مع نجيب محفوظ عندما حصل على اعترافات هامة منه ضمنها كتابه الفريد «نجيب محفوظ يتذكر» الذي قال نجيب نفسه عنه: أنه بعد هذه المحاولة لم يعد لديه ما يقوله عن حياته الشخصية. وكان نجيب محفوظ قد قال من قبل أنه عندما انتهى من كتابة الثلاثية لم يعد لديه ما يكتبه عن حياته الشخصية.

وصحيح أن هناك كتابًا لعبد الحميد جودة السحار هو: «القصة من خلال تجاربي الذاتية» وكان الكتاب في الأصل عبارة عن عدد من المحاضرات ألقاها الكاتب على طلاب معهد الدراسات العربية في القاهرة ولكن هاتين الحالتين تؤكدان القاعدة ولا تقومان بنفيها.

فما زال الروائي العربي عاجزاً عن التحديق بداخله، وليست لديه الجرأة لكي يقدم تجاربه الحقيقية في الحياة والحب والموت. وكذلك تجاربه في الإبداع الروائي. وربما كانت طبيعة المجتمع العربي هي المسئولة عن ذلك، وثنائية

المواقف ولعبة الوجه الحقيقي والقناع المزيف هي السبب في هذه الحالة.

مع أن أدب البوح والاعتراف ومفأجاة النفس من أرقى أشكال الكتابة الأدبية على مر العصور كلها، وبقدر صدق هذا النوع من الكتابة، فإنها تصل إلى قلب من يقرؤها مباشرة دون وسيط حتى لو كان هذا الوسيط عبارة عن الورق والحبر والأقلام.

أكتب هذا كله، لأن روائيًا عربيًا كبيرًا خرج مؤخرًا على هذه القاعدة ٠ غير المكتوبة – وكتب اعترافاته في الكتابة الروائية، والروائي هو حنا مينه الذي أصدر مؤخرًا كتابه الجديد «هواجس في التجربة الروائية» الصادر في بيروت، هذه المدينة التي ما زال لها دورها الفريد في حركة النشر العربية، برغم سنوات الحرب.

الكتاب سيرة ذاتية في مجال الإبداع الروائي، وإن كان يقدم الكثير من مفردات الحياة الشخصية والروحية لحنا مينه، أي أن الكتاب يقف في منتصف المسافة ما بين المذكرات الشخصية والترجمة الذاتية من ناحية، وتجارب الكتابة الإبداعية في ميدان الرواية من ناحية أخرى.

وحنا مينه واحد من أبناء هذا الجيل الذي عبر الفن الروائي على يديه، ليصبح فناً عربيًا بالنسب والدم واللحم والحدث والشخوص، وهو التطور الذي يقوده الآن الروائي جمال الغيطاني في محاولة للوصول إلى نص روائي عربي مستوحى من التراث العربي.

وقد قابلت حنا مينه مرتين في حياتي، الأولى في القاهرة والثانية في دمشق، وذلك قبل أن يجري ما جرى وأن يحدث ما حدث، وتصبح سكة دمشق القاهرة غير سالكة.

وقرأت منذ سنوات الشباب المبكر إبداعاته الروائية. ابتداء من محاولته الأولى «المصابيح الزرق» والتي نشرت في مصر، وحتى عملية «حكاية بحار» و «المرصد» علاوة على كتابه عن ناظم حكمت وكتابه عن أدب الحرب الذي كتبه بالاشتراك مع الدكتورة نجاح العطار الكاتبة والناقدة والباحثة قبل أن تكون وزير للثقافة في سوريا.

على أن روايته «الشراع والعاصفة» تبقى عندى علامة هامة سواء في مسيرة حنا مينة الروائية أو مسار الرواية العربية. ذلك أنها تضع اللبنة الأولى في كتابه أدب البحر باللغة العربية. فالوطن العربي يطل على كل هذه

المساحات من البحار، ومع هذا فإن أدب البحار لدينا شاحب وباهت وهزيل. وفي تصوري أن «الشراع والعاصفة» فيها ذلك الحضور القوي والفريد لملحمة الإنسان والبحر، التي كان من المفروض أن يكون لها حضور أقوى وأبعد وأعمق في التجربة الروائية العربية.

أهمية هواجس أو اعترافات حنا مينه الروائية والحياتية أنها مكتوبة بدرجة عالية من الصدق الفني والصدق الإنساني، وتخلو من نرجسية المثقفين ونزيف الحديث الزائف عن الذات حيث تبدأ كل الجمل بكلمة «أنا» وأنها تقدم كتاباً عصاميا، كون نفسه بنفسه وثقف نفسه بنفسه. تخرج من مدرسة الحياة الدنيا بكل ما فيها. ودخل إلى الكتابة الأدبية من بابا العمل الوطني والكفاح الوطنى ضد المستعمر والمحتمل الأجنبي.

ويعجبني في هذا الروائي العربي الكبير ثباته على موقفه المتقدم من قضايا واقعه، في زمن يمتلئ فيه المسرح الثقافي بالذين ارتوا وغيروا مواقفهم حسب الريح المؤاتية، وما أكثر المفكرين والكتاب الذين انحنوا أمام التيار السلفي وتراجعوا عن قناعات سابقة بحجة إعادة النظر ومراجعة

النفس، وإن كان السبب الحقيقي في هذه المواقف هو حالة من الانتهازية السياسية.

أيضاً أقدر في حنا مينه بقاءه في الوطن، وعدم هجرته له، مهما كانت الظروف الأسباب، ومهما كانت تضاريس العلاقة بين الكاتب والمفكر والسلطة الحاكمة في وطنه وترمومتر هذه العلاقة، ألا إن البقاء على أرض الوطن والمرابطة في الديار أغلى وأعز من أي هجره كانت بصرف النظر إلى أية أرض كانت هذه الهجرة.

كل سطور كتاب حنا مينه الجميل، تنطق بحب هذا الرائد لفن القصة والرواية، بل إن الكتاب نفسه مكتوب بروح حكاء من الطراز الأول، جاء إلى هذا العالم ليحكي ولكن بطريقته الخاصة والفريدة. وكل روائي كبير لا بد وأن يحب الناس، وأقصد الناس البسطاء والعاديين ويرتبط بهم، ويكون جزءاً من الزمان والمكان الذي جاء إليه. وذلك أحد أسرار الحياة الصاخبة في روايات حنا مينه.

وحنا مينه يقول في كل سطر من كتابه الهام، أنه شديد الارتباط بأهله وناسه ومكانه وزمانه، وحاول عبر نتاجه الروائي أن يعبر عنهم بصورة فنيه جميلة ونادرة.

إن هواجس حنا مينه في التجربة الروائية درس هـام وبسيط لنا نحن الروائيين العرب، فـي التواضـع والرغبـة الصادقة في التعلم والمعرفة منذ اليوم الأول وحتـى اليـوم الأخير من العمر، ذلك أنه لأول مرة أجد مثقفًا عربيًا يفتخر أنه كان حلاقاً وكان له صالوناً وفي هذا الصـالون.. بـدأت علاقته بالعمل العام والرواية، في حين أن هذا الكلام لو كتب عن روائي آخر من الروائيين إياهم لاعتبره نوعاً من الهجوم عليه، وبدأ على الفور في الدفاع والرد وكأن هذا القول يقلل من قيمته.

في تجربة حنا مينة كثير من القراءات الهامـة فـي التجربة الإنسانية، وقد بقى لهذه القراءات صـداها، لأنهـا مورست مثل فعل الكتابة وفعل الحياة بأكبر قدر من الصدق، أن الصدق هو كلمة السر والإكسير النادر لكل مـن يكتـب. واللغة لا تسلم نفسها لغير الصادقين، وما كتبـه حنـا مينـة وصل إلى القلب لأنه خرج من قلب صادق، قبل أي اعتبـار آخر.

إن ما كان يشغلني طوال قراءة هذا الكتاب – الوثيقـة هو حال الرواية في سوريا الآن. إن وصول الكتاب السوري

إلينا في مصر ليس سهلاً، وصوت حنا مينة بمفرده لا يمكن أن يصنع نهضة روائية سورية، فأين ما يبدعه الآخرون في الرواية السورية الآن.. أين؟.

٤٢ سبتمبر ٨٨٩١

العيش والملح

... ((الخبز الطباقي)) تعبير جديد، يملأ حياة المصريين الآن ليلاً ونهاراً والتعبير الجديد ليس اختراعًا لغويا، ولكنه كان موجوداً في الأسواق منذ سنوات ولكن دخوله إلى حياة مصر السياسية، بدأ في احتفالات عيد الفلاح المصري التي جرت في الأسبوع الأول من أيلون (سبتمبر* الماضي.

في هذه الاحتفالات تحدث الرئيس حسني مبارك وقال إنه فكر في أن تقوم الحكومة بعمل (العيش الطباقي) بدلاً من ترك صناعته للقطاع الخاص الذي يصنعه ويبيعه غالياً للناس.

والعيش الطباقي هو الذي يطبق أكثر من مرة أثناء عملية خبزه، وهو أفضل وأجود وأحسن من الخبز الذي تصنعه مخابز الدولة ولكن لا بد من القول أنه أغلى فخبز الدولة المدعوم يباع الرغيف بقرشين . أما هذا الطباقي فيباع بسعر يبدأ من الخمسة قروش ويصل إلى العشرة قروش في بعض الأحيان.

وهو خبز خارج على القانون، وبعضه يصنع في البيوت، وهو لا يباع في أى محلات، ولكن يقف به الأطفال والنسوة والشيوخ على طرق السيارات السريعة في القاهرة لكي يشتريه أصحاب السيارات، لأن من يصنعون هذا النوع من الخبز يعرفون أن هناك فئة معينة قادرة على دفع خمسة قروش أو عشرة قروش أو أي رقم بينهما، ثمناً لرغيف خبز، هذه الظاهرة كانت في القاهرة فقط وعند مدخل الأحياء الراقية بالتحديد.

كان كل مصري ينتظر من الدولة أن تقوم بأمرين، أولهما: أن تحسن إنتاج الخبز المسعر من قبل الدولة، حتى لا يضطر الفقراء أيضا للشراء من خبز أصحاب السيارات

وثانيهما أن تقنن وتسعر هذا الخبز الخارج على القانون.

في هذه الأثناء كانت وفود صندوق المتاعب في العالم الثالث، عدو الفقراء الأول في عالم اليوم، الذي نقول عنه من باب الخطأ في التعامل اللغوى: «صندوق النقد الدولي» كانت وفود الصندوق تروح وتجيء وتتحدث في كل مرة عن سعر الخبز وأن السبب الوحيد في ارتفاع معدلات استهلاك الخبز هو رخص ثمنه وأن من يربون الماشية يقدمون لها الخبز

لأنه أرخص من العلف، وهكذا لا حل، في نظر الصندوق، سوى رفع أسعار الخبز في مصر أولاً، ثم يبدأ الكلام بعد ذلك وعلاقة مصر بأي رفع للأسعار شديدة الحساسية والتعقيد معاً، فعندما كان يتم رفع أي سعر لأي سلعة، كان يقال تحريك السعر، ولا بد من تغيير شكل السلعة حتى يكون هناك مبرر قوي لتحريك سعرها وليس لرفعه، فقد كانت آخر مرة تعلن فيها زيادة للأسعار هى سنة ١٩٧٧ والتي أدت إلى التظاهرات الشهيرة.

ولكن صندوق إثارة المتاعب، أقصد صندوق النقد الدولي، وضع العقدة أمام المنشار وسد أذناً بالطين والأخرى بالعجين، ومضى، وكان لا بد من حل، وجاء الحل من سماء صندوق النقد الدولي السابعة وكان اسمه ((الخبز الطباقي)).

وفي اليوم التالي مباشرة قال الناس في الشوارع عنه «العيش الطبقي» لأن قيام الدولة بصناعته معناه أن الأسعار سترتفع أكثر من ٣٠٠% لقد استشهد عبد الناصر وسعر الرغيف خمسة ملميات. وكان رغيفاً واحداً وموحداً لكل المصريين من باب الشعرية حتى الزمالك، ولكن السادات أحال رغيف الخمسة مليمات إلى المعاش ولا وجود له الآن

سوى في متحف الخبز المصري، الكائن في وزارة الزراعة، وأصبح سعر الرغيف عشرة مليمات، ثم ظهرت في مصر تضاريس طبقية، واجتماعية أخرى جعلت هناك أكثر من رغيف له أكثر من سعر، وهكذا استقر سعر الرغيف عند العشرين مليماً، أي قرشان وبعد سقوط رغيف العشرة مليمات فإن رغيف العشرين مليما يبدو مهدداً بالزوال في هذه الأيام لكي يدخل إلى الساحة رغيف يبدأ سعره من الخمسين مليماً ويصل إلى المائة مليم. أي من خمسة إلى عشرة قروش.

بعد أن تحدث الرئيس في خطابه على الهواء عن الرغيف الطباقي بساعات، أعطى رئيس وزراء مصر تعليماته لوضع دراسة عاجلة حول الموضوع، ثم يومان فقط وكانت وزارة التموين على أهبة الاستعداد للبدء في التجربة، وهكذا تحولت الفكرة إلى قرار سياسي.

والخبز هو الآن المادة الرئيسية على المائدة المصرية للسواد الأعظم من شعب مصر. وذلك بعد اختفاء اللحوم التي تمثل البروتين وتراجع الخضر والفواكه التي تقوم الفيتامينات، حيث لم يبق من المواد التي تقدم الطاقة للإنسان

سوى الخبز الذي يمنح الإنسان شعوراً بالشبع وامتلاء البطن، ويقدم الطاقة المطلوبة لجسد منهك يبحث عن الطاقة.

ولذلك يرتفع استهلاك المواطن الفقير من الخبز ويصل إلى خمسة أرغفة في اليوم الواحد.. وهذا ما يعني مشكلة حقيقية في الإنفاق عندما يرتفع سعر الخبز.

هكذا ما يجرى للعيش فماذا عن الملح؟! كان في مصر الستينات ملح طعام واحد، ولكن في مصر السبعينات أصبح في مصر ملح محلي وملح مستورد وملح خشن وآخر ناعم، أنواع وأنواع غيرت في سعره بصورة غير عادية، الآن تثار في مصر قضية ملح طعام مغشوش تستخرجه بعض شركات القطات الخاص، وبعض التجار من مخلفات الصرف الصحي، حيث توجد بعض الأملاح الناصعة البياض ولكنها غير صالحة للاستهلاك الآدمي وتحتوي على مواد ضاره بصحة الإنسان.

لقد كان العيش والملح في مصر رمزاً للوفاء، ودليلاً على عقد اجتماعي من نوع فريد بين الناس يرمز للتكافل الاجتماعي، والانتماء للوطن، والارتباط بالأهل والأقارب، والرغبة في العمل والعرق البناء، والمصري البسيط عندما

كان يجد قطعة خبز في الأرض يأخذها ويقبلها ويضعها في مكان عزيز فهي نعمة من الله، والنعمة لا بد وأن تقدس وعندما يخرج المصري إلى العمل، يقول أنه يجري وراء لقمته.

إن العيش والملح هما آخر حصون التماسك الاجتماعي في مصر الراهنة، دعونا من الأسعار، فلن أتحدث عن ميزانية الأسرة المصرية ولا عن العبء الجديدة، فحديث الأرقام خداع لا يجب أن ننصت لعلماء الاقتصاد عندما يقولون أن رفع سعر الخبز سيؤدي إلى التقليل من الاستهلاك ويعود لخزانة الدولة بكذا مليون من الدولارات لتذهب كل دولارات العالم إلى الجحيم، ولكن الخبز ليس سلعه تباع وتشترى ويتم التحكم بسعرها عن طريق الدولة. أنه كلمة السر النادرة في سر استقرار هذا المجتمع على مدى سبعة الاف سنة. أنه مفتاح الضبط الاجتماعي ومنظم إيقاع الواقع الاجتماعي في مصر ليقل صندوق النقد الدولي ما يريده، فالمصريون أدرى بشعاب مصر ودروبها، ودلوني على دولة واحدة في العالم أوصلتها وصفة هذا الصندوق إلى أي أمان

من أي نوع كان. إن وصفات الصندوق عادة هي بداية المتاعب.

يقول البسطاء والقراء في مصر أن العيش هو مسمار البطن، أي الأساس لكيان الإنسان نفسه فهل يستطيع العيش الطبقي أن يكون مسمار بطن مصر؟! وهل يقبل العيش الطبقي أن يكون مسماراً من الأساس؟ خصوصًا عندما يكون هذا المسمار من أجل بطون الفقراء والغلابة؟!.

١ أكتوبر ٨٨٩١

في بيت عبد الناصر

عندما أبلغت صديقي وزميلي في «المستقبل» أسعد حيدر أننا سنذهب في المساء إلى بيت جمال عبد الناصر، طلب مني أن أبحث له عن ربطة عنق تناسب الرحلة، فكل ما معه من أربطة العنق التي أحضرها من باريس لا تصلح، فيها ألوان حمراء، فحمدت الله أنني لا أتعامل أبداً مع أي رباط للعنق وأن بيني وبين أربطة العنق جميعا مهما كانت ألوانها وأنواعها وأقمشتها وداً مفقوداً.

اليوم هو الأربعاء الثامن والعشرون من أيلول (سبتمبر)، اليوم هو ذكرى رحيل جمال عبد الناصر عن عالمنا منذ ٨١ عاماً ومنذ الرحيل وأسرة عبد الناصر تعودت على أن تذهب إلى ضريحه في الصباح وأن تستقبل من يشاركون الأسرة المناسبة سواء من مصر أو من الوطن العربي أو من العالم في منزله في المساء، أما الندوة أو الاحتفال السياسي بذكرى رحيله فيقام في اليوم التالي في نقابة المحامين المصريين وتحضره كافة القوى الوطنية.

وأنا شخصياً لا أفهم لماذا نحتفل نحن المصريين بالموت أكثر من احتفالنا بالحياة؟ لماذا نحتفل بذكرى رحيل

عبد الناصر أكثر مما نحتفل بذكرى ميلاده؟ في منتصف كانون الثاني (يناير) مرة كل عام، إن لنا علاقة غريبة مع الموت أكثر من علاقتنا بالبعث والنشوء والحياة.

الشارع الذي يقع فيه البيت معتم، من أن الرجل الذي أقام هنا عشرين عاماً أضاء مصر والدنيا والعالم الثالث بثورته الشامخة، وفي العتمة ثمة سيارة دورية شرطة عسكرية تمسح الشارع الخالي المفروش بالصمت والظلام، وأمام البيت عدد من رجال الحراسة، منهم الأوفياء الذين ظلوا مع الأسرة منذ زمان عبد الناصر، ومنهم من أتى بهم زمان ما بعد عبد الناصر إلى هذا المكان. دخلنا البيت هنا كان الرجل في هذه الحديقة، كان يجلس يقرأ الصحف يتابع ما يجرى في عالم اليوم، هنا بيت الروح لأجيال جديدة خرجت إلى الحياة هذا الرجل بثورته العظيمة في مصر، اتجهنا إلى المبني، فلحق بنا أحد رجال الحراسة ولفت نظرنا إلى أن الصالون الداخلي مخصص للنساء، أما الرجال فلهم الحديقة الخلفية للبيت، تعجبت في سري لقد كان عبد الناصر مشغولا بقضية تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وبالتأكيد فهو لا يرضى بهذه التفرقة الغريبة بين النساء والرجال

وطوال عمره لم ينظر للمرأة المصرية على أنها امرأة، ولكن على أنها إنسانة أولا وقبل أي اعتبار آخر، لقد حاول جهده طوال عمره أن يغلق الباب نهائيا على عصر الحريم الذي امتد منذ زمن الترك المظلم، وأول صحفية وأول سفيرة وأول وزيرة وأول عاملة كلهن جئن إلى مصر في زمانه وفي عصره. في الحديقة يجلس في المقدمة الدكتور حاتم صادق وهو يتوسط عبد الحميد عبد الناصر وعبد الحكيم عبد الناصر نجلا عبد الناصر وحاتم صادق موجود وحاضر في أي مناسبة تخص عبد الناصر.

هو أول الحاضرين دائماً وآخر المنصرفين أيضاً، ووجوده علامة هامة لا تخطئها العين، في هذا المكان كان يقف الدكتور المهندس خالد جمال عبد الناصر بقامته الفارعة وطوله الذي يحاكي الشجرة العالية التي يقف تحتها، ولكن خالد عبد الناصر هذا العام، ولأول مرة، بعيد عن مصر، غائب حاضر، موجود وغير موجود، حيث يعيش الآن في المنفى في بلغراد عاصمة يوغسلافيا، منذ أن أعلنت قضية ثورة مصر في مثل هذه الأيام من العام الماضي، وهكذا

ترتبط ذكرى رحيل الولد بذكرى الرحيل والنفي عن أرض الوطن لابنه البكر خالد فياله من ارتباط غريب وعجيب.

انظر في الوجوه، أنها ليست ذكرى رحيل عبد الناصر، أنها وجوه عصر كامل تجلس على المقاعد في الحديقة الخلفية لبيت عبد الناصر، الوقت هو أول الليل من خريف القاهرة ورجال عبد الناصر يلتقون في هذه المناسبة من كل عام وغياب شعرواي جمعة لا بد وأن يدركه الإنسان فهو الآن في أحد مستشفيات باريس يعالج من آثار جراحة أجريت له في مصر مؤخراً.

حسين الشافعي يبدو أكثر الحاضرين حضوراً: والرجل له توهج غريب منذ أن أتهم ابنه في تنظيم ثورة مصر المعادي للعدو الإسرائيلي وللعدو الأميركي حيث الاستعمار الجديد الذي ورث الاستعمار القديم، لقد قال حسين الشافعي عند إعلان اسم ابنه ضمن المتهمين في القضية:

«تهمة لا ندفعها وشرف لا ندعيه».

نشاهد الرجال الذين عاصروا قمة المد العربي محمود رياض، سامي شرف، محمد أحمد، عبد اللطيف البغدادي، علي صبري إلى جانب هؤلاء يوجد صياد من أسوان جاء

من آخر نقطة في جنوب مصر لكي يشارك فـي المناسبة، يجلس حزينًا يداه متشابكتان بين فخديه وعيناه مثبتتان علـى قدميه ودموع مقدسة تفح في هدوء غير عادي وتنحدر الدمعة الواحدة في خده تسير في التجاعيد، والوجه كله يبدو غابـة من التجاعيد تمشي الدمعة بين شعيرات بيضاء لـم يحلقهـا الرجل إلى أن تستقر في احد التجاويف الكبيرة في الخد.

عامل من كفر الدوار، جاء من أبعد مكان في شـمال مصر، فلاح، من مديرية التحرير حلم عبد الناصر في غزو الصحراء وتحويلها إلى أرض زراعية، لكني عندما شـاهدته وعرفته همست بداخلي: سائق، حلاق، مواطن فلسطيني من لندن حيث يعمل جاء ليشارك في هـذه المناسـبة، مناضـل عربي سافر خصيصـًا من منفاه لكي يجلس هـذه اللحظـات العابرة في بيت عبد الناصر، إنهم رموز عبد الناصر الـذي امتد حتى شمل داخله كل الوطن العربي.

هذا العام تأتي ذكرى استشهاد عبد الناصر في مواجهة أقسى درجة من درجات الحملة ضده، سواء بكتاب اعتمـاد خورشيد أو بهجمة إسرائيل وأمريكا الشرسة وفلول ما قبـل يوليو أو بكتاب أنيس منصور الذي نزل إلى الأسـواق يـوم

ذكراه ((عبد الناصر المفتري عليه والمفتري علينا)) لقد تصوروا جميعًا أن الفرصة قد جاءت أخيراً، وهكذا خرجت الخطط من أجل الإجهاز على عبد الناصر الذي يزداد التمسك العربي والمصري والعالمي به يوماً بعد يوم، لأن كل ما يجري لنا يجعلنا أن اختياره كان هو الاختيار الأقرب إلى الصواب، إن لم يكن هو الصواب نفسه، وأخطاء من جاءوا بعده هي التي جعلتنا ندرك أنه كان الصواب يمشي على قدميه، أقول الصواب الوطني أولا وأخيراً.

لكننا قابلنا عبد الناصر مرة أخرى في الليلة نفسها، فعندما قادتنا أقدامنا إلى حي سيدنا الحسين الشعبي حيث غابة من المآذن التي تشرب من قلب سماء القاهرة، أبدي أسعد حيدر رغبته بأن يشرب عصير المانجو، وقفنا أمام محل لعصير القصب وبينما نحن نطلب من ابن البلد صاحب المحل عصى المانجو إذا بعبد الناصر يطل علينا بابتسامته التي كانت قادرة على امتصاص كل اضطرابات الكون ونظراته القادرة على قراءة كل ملامح الزمن الآتي.

اكتشف صاحب محل العصير أننا نحدق بعبد الناصر فاستدار إلينا وغسل التراب عن الصورة، وكأن الرجل قد

أحب أن يعلن رأيه في كافة الحملات الموجهة ضد الرجل والتي اشتدت بصورة لم تحدث منذ رحيله في مثل هذه الأيام، عندما مددت يدي لأدفع ثمن العصير الذي شربه أسعد حيدر، فأنا لم أشرب عصيرًا ولا أشربه منذ أن أتاني السكر هذا الضيف الغريب والسخيف، رفض الرجل أن يحصل على الثمن. لقد أدرك أنه يجمعنا به حب صاحب هذه الصورة المعلقة خلفه.

لقد تزامنت ذكرى مرور ٨١ عامًا على رحيل عبد الناصر مع ذكرى مرور عشر سنوات على توقيع كامب ديفيد، تقابلت الذكريات فأي سخرية مريرة يفعلهابنا هذا الكائن الخرافي الذي اسمه التاريخ، فكرت أن أقف في منتصف شارع الأزهر لكي أقول له رحمة بنا يا أيها التاريخ، ولكن هل رحمنا أنفسنا أولا ورحمناه ثانيًا باعتباره تاريخنا حتى يرحمنا نحن.

جئت من بيت الروح إلى جحيم الأسئلة، لا أجرؤ على الاقتراب من الإجابات الحقيقية عليها كانت الذكريات ذكرى استشهاد عبد الناصر منذ ٨١ عامًا وذكرى توقيع كامب ديفيد منذ عشر سنوات تتصارعان في سماء القاهرة، قاهرة الألف

مئذنة والألف ذكرى وذكرى، قلت لنفسي لن يرحمنا التاريخ، هذا الكائن المهول والخرافي ما لم نستطع نحن أولا أن نرحم أنفسنا.

٨ أكتوبر ٨٨٩١

لغة النشالين والحرامية

.. مجهود حربي تعنى عملية تعليم الصنعة لنشال جديد حتى يشرب الكار. أما المسروقات فتسمي بعد الحصول عليها الخير، ويسمى النشالون الزبون الذي قرروا نشله: «المدعي» وهي الكلمة نفسها التي تطلق عليه بعد ذلك في أوراق الحكومة، بعد أن تقع الفأس في الرأس ويصبح هناك سين وجيم وأوراق وتحقيق وقضية والذي منه.

والنشل أنواع وأشكال، هناك النشل على الطاير والنشل على المساجد، والنشل على الماشي بالهزار أما النشل على الطاير فيتم من خلال الاصطدام بشخص يمشي في طريق عام، ويجب أن يتم الأمر كله بمجرد وقوع عملية الصدام وليس قبلها وليس بعده، ولا بد أن تتم العملية في أقل من لمح البصر.

والنشال يعتمد بدرجة أساسية على المهارة في أصابع اليدين، فيقال أن أصابعه يجب أن يتم لفها في الحرير، ويتدرج الأمر من الحرير إلى القماش العادي إلى الخشب إلى القصدير إلى الحديد.

وإن كان لف الأصابع في الخشب يقال عن النشال الخائب، غير الماهر، فإن اللف في الحديد يقال عادة عن النشال الذي يخون العشرة والعيش والملح سواء في اقتسام ((الخير)) أي الوارد من النشل أو ربما في إبلاغ رجال الشرطة عن الأخرين.

وفي دراسة غريبة من نوعها، صادرة في القاهرة مؤخراً عن «اللغات السرية» حيث يكشف مؤلفها عن لغات النشالين والحرامية والنصابين، يأخذنا الباحث إلى هذا العالم الغريب، ويدخله معنا من باب اللغة السرية التي يتعامل بها هؤلاء الناس مع أنفسهم.

والأصل في اللغة السرية هو الرغبة في التخفي عن رجال الشرطة، وكذلك محاولة خلق واقع اجتماعي خاص بهم، وتحويل النشالين والنصابين والحرامية إلى مجموعات لها درجات من الصلات الاجتماعية واللغوية المغلقة عليهم، وأهم من كل هذا خلق لغة متفردة لا يعرفها الضحايا وهم الذين يتم نشلهم في العادة وحتى هذه اللغة لها اسم خاص عندهم، حيث يقولون عنها ((السيم)).

والنشل والسرقة لهما أصول وقواعد ومدارس في العمل. وتمر عملية النشل نفسها بعدد من المراحل تبدأ من الأعداد والدراسة وتصل إلى التنفيذ ثم الهروب من مسرح عملية النشل بسلام، وشعار النشال واللص واحد هو البحث عما خف وزنه وغلا ثمنه وسهلت عملية إخفائه عن الأعين.

والنشالون أنواع وأشكال، منهم الهناجره والغجر والبهلوان ونشال البحر والنشال الكيجان وهناك من ينشل من بلده ومن ينشل من بلاد أخرى، وهناك من ينشل ويسرق في كل أوقات السنة ومن يعين مواسم للنشل، مثل موسم الحج والعمرة والأعياد السنوية مثل عيد الفطر وعيد الأضحي ، بل إن هناك من ينشل في مباريات كرة القدم فقط، أو الموالد الشعبية، بل إن هناك الذي لا ينشل سوى في الدورات الأولمبية التي تقام كل أربع سنوات ويسافر إلى مكان انعقاد الدورة من أجل النشل فقط.

وكل فئة من النشالين واللصوص لها قواعدها في العمل وقوانينها الخاصة ولها ما يميزها عن الفئات الأخرى، فالنشال البهلواني هو الذي يعتني جداً بمظهره وبيته وأولاده ولا ينشل سوى الحريم لأن ذلك يكون أسهل بالنسبة ، له

والنشال الهنجري لا يسرق سوى من بلد غير بلده، ولذلك فهو ينظر إلى أولاد البلد على أنهم متخلفون ويتعامل معهم بتكبر وأولاد البلد يقولون عنه: ((الخبير الأجنبي)) والطرفان يرفضان تمامًا التعاون معاً.

والنشال الكيجان أقل قيمة في عالم النشالين واللصوص لأنه يتعامل مع سرقات صغيرة مثل الحقائب والأقلام والساعات وإن كان أكثر مهارة، والنشالون الهناجرة يعملون عادة في السعودية، الأردن والكويت، أما الكيجان فيعملون في أوروبا لأنهم أصحاب مؤهلات جامعية، والهناجرة يقال عنهم أن أسلوبهم جامد وتقليدي وأن النشال منهم لا يعرف سوى النشل الأرضي وفي مواسم الزحام الشديد فقط مثل الحج والعمرة والأعياد والموالد الشعبية.

أما النشالون من الغجر فالأمر معهم يختلف، فالبنت أهم من الولد لأنها في نظر الغجر أكثر دربة ومهارة وخفة يد من الرجل، ولذلك فإن سعادة الغجري بولادة طفلة تفوق ألف مرة فرحة بمجئ طفل وعندما يتم إعداد هذه الطفلة لكي تصبح نشالة يقولون عنها (أرابوه صوان).

والأرقام لها دلالات أخرى وأسماء مغايرة في عالم النشالين واللصوص فالواحد يقولون عنه «ياكي» والاثنان «دو» والثلاثة «سوس» والأربعة «روبه» والخمسة «مدوره» والعشرة «بريزه» والمائة «أستك» والألف «باكو» والمليون «أرنب» وبعض هذه التسميات لها أصول فالمائة تحتاج إلى استك لكي يضمها مع بعضها والألف لا بد له من باكو من أجل وضعه فيه أما المليون فيقال عنه أرنب بمعنى أنه يتكاثر من تلقاء نفسه. واللصوص يقولون أن كل المطلوب هو الأرنب فقط ثم الباقي كله مسهل بعد ذلك.

ومن يسرق الشقق يقولون عنه هجام، والنشالون واللصوص لا يعتبرون أنفسهم من المجرمين، لأن كل عملياتهم لا تسيل بسببها نقطة دماء واحدة، وهو يقولون عن العملية التي تتم بدون دماء بعد الانتهاء منها: ((عملية نضيفة مية المية)) أما المجرم في نظرهم فهو الذي يقتل أو يعذب أو يغتصب، لأن عملياتهم تتم بدون اغتصاب أو قتل أو تعذيب فهم شرفاء وليسوا مجرمين.

وجيوب الناس لها أسماء كودية عند النشالين فالجيب الجانبي يمسى الطويل، والجيب الخلفي يمسى السية، وجيب

الجاكيت يقولون عنه الصندوق وجيب الصدر هو المصدر، والجيب الصغير الحساس والجيوب السرية يقولون عنها العلبة.

وأصابع النشال التي يستخدمها في النشل لها أسماء أيضاً الأبهام يقولون اللديري، والخنصر الأدكاوى ووسائل المواصلات العامة لها تسميات رمزية الأتوبيسي يقولون عنه البنديرة، والقطار يقولون عنه الطويل، وعندما ينتهي النشال من العملية بنجاح يقول : آه ويمط الآلف طويلاً. وهذه إشارة متفق عليها بينهم وهناك أشارات للتحذير بينهم فعندما يقول كتف يعنى تكتم، وأهرس أي تكلم.. ووكد نفسك معناها حاذر وكهس كباري معناها أنه سرق الحكومة.

والزبائن لهم أوصاف عندهم فعندما يقولون زبون

حياتي معناها أنه زبون غني، وإن قال السلك ضاربه أو كحيتي أي أنه فقير وغلبان ومعدوم وان كان فقر الزبون لا يمنع نشله وسرقته ولكن هذا لا يتم إلا في حالة عدم وجود زبون غني.

والنقود السائلة تسمى السيله، وإن قال نشال لزميله عن زبون في خده طباشيرة أي أنه معه قلم ثمين وغال في جيب الجاكيت.

وخلال عملية السرقة والنشل فإن من يقوم بالتخطيط للعملية يسمى الدكتور ومن ينبه للبوليس يسمى الناضورجي.. ومن يغطى عملية الانسحاب ويشاغل الناس والشرطة يقولون عند الدبان.

وتجار المخدرات لهم اللغة السرية الخاصة بهم فالحشيش يسمى الأخضر، والأفيون الأسود والبرشام أبو دقن. وأفضل أنواع المخدرات يقال عنها بضاعة هبو. وإن كانت هناك أنواع متعددة من الحشيش يقولون شويه كنسه ويسمى المهرب الريس، ويطلق على الصفقة مصلحة، ويقولون عن المتعاطين اقطون، بينما يقولون عن تاجر المخدرات المجوع. ولكن التاجر النذل أو مرشد البوليس والذي يحاول أن يبدو قلقاً وخائفاً من الشرطة يقولون عنه ده

عباس. والعقوبات في عالمهم أسماء أخرى؛ الأشغال الشاقة المؤبدة هي العباية، وعشر سنوات سجن هى أحمرة،

والخمس سنوات أخضره والأعوام العمة والدولار يقولـون عنه الأخضر والجنيه المصري: أبو مادنة.

لقد احترت بعد قراءة هذه الدراسة هل هي لغة سرية، أم نوع من الإبداع الجماعي لعدد من الخارجين على القوانين والمجتمع، لا يعترفون بذلك ويتصورون أنهم يقومون بأعمال أخرى في هذا الواقع، بصرف النظر عن رأي الناس فـيهم، أم أن هذا شكل من أشكالا لاحتجاج غير الواعي على لغـة المجتمع الذي يسرقون منه.

مرة أخرى.. حيرتني كثيرًا هذه الدراسة!..

١٥ أكتوبر ٨٨٩١

وزير محظوظ وشعب قليل البخت

قليل البخت فعلاً هذا الشعب المصري، الطيب والمسكين، فالفقرة الوحيدة في احتفالات افتتاح الأوبرا، التي كان سيشاهدها بالمجان، ألغيت في اللحظة الأخيرة. والفقرة كانت عبارة عن مجموعة من الألعاب النارية تطلق في سماء القاهرة لحظة الافتتاح، رصدت لها حكومة اليابات نصف مليون دولار وقد لفت الرقم أنظار الفقراء أكثر من أية أرقام أخرى، بمباً وحرب أطاليا وبالونات ودخان ملون، وكل هذا تتم فرقعته في نصف ساعة في الهواء ويتكلف نصف مليون دولار، أي أكثر من مليون جنيه

مصري، لكن المثل الشعبي يقول إن قليل البخت يلاقي العضم في الكرشه، وقليل البخت يتكعبل في الصديري ومن قلت بخت هذا الشعب المصري الطيب والبسيط، فإن امبراطور اليابان الذي حكم بلاده أكثر من ستين عاماً، وعاش أكثر من تسعين عاما، قد دخل مرض الموت الأخير قبل افتتاح الأوبرا.

وهكذا قرر ولي عهد اليابان، أن يلغي سفره إلى مصر لحضور افتتاح الأوبرا في القاهرة، وسحب على الفور النصف مليون دولار، وتم إلغاء الألعاب النارية من سماء القاهرة. فإذا كانت هذه الألعاب ستسعد الشعب المصري، خصوصًا البسطاء والفقراء فإن ولي عهد اليوم وامبراطور الغد في اليابان لن يحضر، وكل هذه الألعاب كانت من أجل سواد عيونه هو أولاً وأخيراً، أما الشعب المصرى فله الله.

دخول الأوبرا قضية أخري، فإن كانت الأوبرا في العالم كله هي فن الصفوة، فإنها في مصر ستصبح فن الطبقة القادرة على دفع أسعار تذاكرها، فمن سوء بخت أبناء مصر أن الأوبرا افتتحت والمسئولون عن ثقافة مصر يفكرون في الثقافة باعتبارها رافداً للسياحة مرة، وعلى أنها عمل من أعمال الاستثمار المالي مرات، ويفكرون في تحويل وزارة الثقافة المصرية من وزارة خدمات إلى وزارة للاستثمار.

وهكذا أصبحت أسعار تذاكر الدخول إلى الأوبرا تبدأ من ثلاثين جنيهاً، وتنتهي عند الخمسة جنيهات، ولن أتوقف طويلاً أمام القدرات المالية للمواطن المصري، ولن أحسب

ما يمكن أن تدفعه أسرة مصرية متوسطة الحال إذا فكرت بالذهاب إلى الأوبرا!!.

وقلة البخت وسوء الحظ لم تكن وقفاً على الشعب المصري وحده، ولكن الأشقاء العرب نابهم من الحب جانب فلدخول الأوبرا أسعار مختلفة، هناك أسعار للمصريين وأخرى للأجانب وقد اعتبر الأشقاء العرب وفي زمن تضميد جراح علاقات مصر بالعرب من الأجانب، وسعر التذكرة في هذه الحالة لا بد وأن يدفع بالدولار الأمريكي، ويبدأ من سبعين دولاراً وينتهي عند عشرين دولاراً.

هناك من يفكر بمنطق حسابات الربح والخسارة ويقول أن السائح العربي قادر على الدفع وهو يدفع في الفندق والمطعم والملهي، وهذا صحيح ولكن أرقام ما يدفع لا تساوي أن نعيد لمصر وجهها العربي، والعلاقات العربية – المصرية لن تعيدها ابتسامات الرؤساء والقادرة في الزيارات الرسمية، ولكن من خلال العلاقات اليومية الحميمة بين الناس

العاديين. وإذا كانت أسعار التذاكر ستحول رواد الأوبرا إلى طبقة، فإن نوعية ما يقدم ستجعل المكان أقرب إلى منتدى

الأجانب في مصر، وأنا شخصياً لم أكن أحب أن تبني اليابان أوبرا لمصر، لأن المبني جاء صغيراً ضئيلاً لا يوجد جزءاً من الفهم الياباني للبناء والعمران ومهما كانت ظروف مصر الاقتصادية صعبة، فقد كانت قادرة على أن تبني أوبرا فيها الروح المصرية والعربية.

إن افتتاح الأوبرا يحمل إلى النفس دلالات حزينة عن الوطن المصري، افتتاحها الأول كان في سنة ٩٦٨١ ونحن نعرف ما جرى لبلادنا بعده، من ديون وإدارة أجنبية وتدخل صريح في شئون مصر، الذي انتهي بالاحتلال الأجنبي، بل أن تكاليف الأوبرا، من إنشاء وافتتاح، تحولت بعد ذلك إلى بند من بنود ديون مصر، ولكن والحمد الله هذه المرة حصلت مصر على الأوبرا هدية من اليابان.

وحريق الأوبرا منذ سبعة عشر عاماً مضت كان يعني بدء رفع الستار عن زمن جديد وعصر جديد، وحولت مصر فيه من الثورة إلى ثورة مضادة وتم إعادة فك وتركيب هذا الوطن الجميل ليتحول من النقيض إلى النقيض.

أعرف أن هذا الكلام سيجعلني أبدو كمن لم يجد في الورد عيباً، فقال له يا أحمر الخدين. ولكن الأمانة تفرض

على الإنسان قوله، فنحن أمام حدث يقولون أنه هام وخطير ويضع مصر على عتبة عصر حضاري جديد لا بد وأن نستعد له من الآن، وبسبب خطورة الحدث جرى في صمت تغيير اسم الأوبرا إلى المركز الثقافي والتعليمي، هكذا يكتب اسمها، وبعد هذا الاسم وبين قوسين ويكتبون «دار الأوبرا» وقد حاولت جاهداً أن أفهم السر والسبب وراء تغيير الاسم، وعندما لم أصل إلى أي سبب حقيقي ومقنع اكتشفت أن الجري وراء المحاولة هو نوع من العبث وتضييع الوقت.

ولكني أسأل سؤالاً مشروعاً: أيهما كان أجدي وأفيد وأكثر جدوي بالنسبة للثقافة المصرية، أن نعيد ترميمها وأن تقوم بعمل البنية الأساسية لعمل ثقافي مصري سليم، أم نجي وراء الأوبرا؟! أيهما أكثر أهمية، ثقافية الفلاحين والعمال والناس البسطاء في القرى والمدن أم ثقافة الصفوة والنخبة؟ ببساطة وهدوء: القاعدة العريضة أم القمة الضيقة؟

في القمم أضواء وتلفزيون وصحافة وإذاعة ودوى هائل ومخيف اسمه الأوبرا، تعود إلى بر مصر، وتحت هذا العنوان كثير جدا مما يمكن أن يقال ولكن وسط القاعدة عرق

صامت وجهد حقيقي وعمل دؤوب، والكل يهرب الآن من العمل إلى الأضواء والدوى.

بدأت الكتابة بالبخت والحظ والقسمة النصيب وإن كان الشعب المصري الطيب يبدو قليل الحظ مع الأوبرا، فإن واحداً من أبنائه يبدو حظه مع الأوبرا بدون حدود، وهذا الواحد اسمه فاروق حسني، وهو يعمل وزير ثقافة مصر، فعلى الرغم من أن وزير الثقافة الأسبق محمد عبد الحميد رضوان صاحب تعبير «مصريتنا حماها الله» الذي تحول بعد ذلك إلى أغنية، هو الذي اتفق مع اليابان على مسألة الأوبرا، من الألف إلى الياء.

وعلى الرغم من أن وزير الثقافة السابق الدكتور أحمد هيكل هو الذي بدأ العمل التنفيذي لبناء الأوبرا، فإن الأوبرا هي الآن إنجاز الوزير الحالي، من الألف إلى الياء، ومن الإبرة إلى الصاروخ، وعمومًا إن كان الشعب المصري قليل البخت سيئ الحظ، فيكفي أن أحد أبنائه حظه عظيم وبخته يفوق كل الحدود، فالشعب المصري أيضاً هو الذي قال: قيراط حظ ولا فدان شطارة.

٢٢ أكتوبر ٨٨٩١

نوبل يدخل الحارة المصري

والعنوان ليس من عندي هذه المرة، أمانة الكلمة لا بد وأن تدفعني إلى إعادة الفضل إلى أهله ونسبة التعبير إلى أصحابه، فقد سمعت هذا العنوان بالحرف الواحد من فنانة مصرية ومن فنان مصري ورأيت معناه في تصرف واحد من أبناء البلد المصريين.

سمعت الفنانة الواعية والجادة معالي زايد تقول أن ألفريد نوبل قد دخل الحارة المصرية وبعد يومين استمعت إلى الجملة نفسها وبالحرف الواحد من الفنان الجاد صلاح قابيل، ولم يكن أحدهما قد التقى بالآخر، المسألة تتعدي توارد الخواطر، وقد تأكد لي ذلك عندما كنت أقف مع نجيب محفوظ أمام مدخل بيته بعد إعلان فوزه بنوبل، فأقبل واحد، من أبناء البلد وصافح نجيب محفوظ وقبله وعندما سألت المواطن البسيط، الذي يرتدي جلبابًا بلديًا عن الحكاية، قال لي ببساطة:

- الراجل ده – وأشار إلى نجيب محفوظ – جاب لنا قشاية والغرقان يتعلق بأي حاجة.

لم أفهم بسرعة فأكمل الرجل:

- دا هوا بعد سنين الكتمة والزهقان.. هو يرد الروح.

إذا كان يجمع بين معالي زايد وصلاح قابيل إنهما من أهل الفن، أي من صفوة المجتمع، يعرفان جيداً ما يقولانه، وأنهما قاما بأدوار بعض شخوصه في أعمال فنية فإن ابن البلد طيب القلب يكمل ما يقولانه ويوضح بتصرفه أن المصرى، بعد التعب والإجهاد والضني، يحتاج إلى شيء يصلب طوله عليه، حتى لو كان هذا الشيء جائزة أدبية.

ونجيب محفوظ نفسه عندما سألته لمن يهدي هذه الجائزة من أبطال شخوصه، قال: لزنوبه العالمة في الثلاثية.

قلت له إن الفنانة معالي زايد تستعد لكي تمثل هذا الدور في مسلسل عن الثلاثية، قال لي إن أداء معالي لشخصية حميدة في المسرحية المأخوذة عن «زقاق المدق» أفضل – ألف مرة – من أداء شادية في الفيلم المأخوذ عن الرواية نفسها.

والناس العاديون فرحوا بالجائزة لأنه قبلها بأيام أرسلت مصر بعثة رياضية ضخمة إلى سيول في الدورة الأولمبية وتكلفت مصر أموالاً طائلة، ومع هذا عادت البعثة كما ذهبن وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا.

لكن الأزمة المصرية والعربية الراهنة دفعتنا إلى نوع من الاحتفال بالجائزة شابه العديد من الأخطاء. ففي الوقت الذي نظر الجميع إلى مجيء الجائزة على أنه معجزة ، تفوق حتى الخيال بما في ذلك نجيب محفوظ نفسه، فأنا أعتقد أن منح الجائزة لكاتب عربي هو رد اعتبار للجائزة نفسها ومحاولة لإزالة الغبار السياسي من فوق وجهها.

ومنذ أن نشئت جائزة نوبل وهي تهدي على أساس سياسي صرف في المرحلة الأولى كانت تمنح لمن ينشقون ويصبحون ضد الأمور في الاتحاد السوفيتي ، طبعاً يحصل عليها أبناء أوروبا أولاً، ولكن السوفييت لا بد وأن يكونوا منشقين. وفي المرحلة الثانية قدمت الكتاب الصهاينة، حتى الذين لا يمثلون أي قيمة فنية أو فكرية، وعندما كثر الحديث عن حرمان أبناء العالم الثالث منها قدموا بعض الجوائز لأبناء آسيا وأمريكا اللاتينية، وأخيراً إلى الأفارقة.

وبعد أن خلا جراب الحاوي لم يعد هناك مفر أمامه من أن يقدمها لعربي، للأدب الذي جرى تجاهله مع انه يشكل مع الأدبين الإغريقي والأوروبي تراث الإنسانية الحقيقي كله منذ فجر البشرية وحتى الآن.

لم تعجبني الطريقة المصرية العربية في التعامل مع الحدث، أصبحت الجائزة وكأنها شهادة ميلاد لنجيب محفوظ وكأنها شهادة ميلاد للأدب العربي كلهمع أن نجيب محفوظ يحفر بأظافره في الصخر منذ خمسين عاماً والأدب العربي موجود من قبل نوبل بأكثر من قرنين من الزمان.

أن تأتي هذه الجائزة خير وبركة، وأن تفتح الآفاق أمام الأدب العربي واللسان العربي، أهلاً وسهلاً، ولكن هذا لا يسقط مرارات الأمس القريب والبعيد من نوبل وجائزته باعتبارها في النهاية والبداية جائزة منحازة ضد التقدم والعرب وفقراء العالم، وأن هناك دوائر صهيونية تحاول أن توحي أن لها تأثير على صنع القرار فيها.

علينا أن ندرك أنهم يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة هذه الجائزة، ولذلك جرى التفكير في أديب عربي المطلوب منا الآن، عربيًا ، أن نحول هذه الجائزة إلى استفادة عربية، إلى دفعة جديدة للأدب العربي إن حصول نجيب محفوظ على نوبل جعل الصحف في مصر تصدر والمانشيت الرئيسي فيها عن الأدب، وحتى في عصور الازدهار الأدبي، كانت الصحف تنشر قصيدة لأحمد شوقي في

الصفحة الأولى، ولكن القصيدة شيء والمانشيت أمر آخر تماما، فمنذ أن وجدت الصحافة اليومية وأهل السياسة والاقتصاد والعسكر ونجوم الكرة يحتلون هذا المكان، فها هو كتاب يزحف نحوه ويحتله.

إنها فرصة نادرة أن نعيد الاعتبار للعقل العربي والفكر العربي والإبداع العربي. أن يصبح المثقف العربي مرة أخرى زرقاء اليمامة التي تحاول أن ترى ما هو أبعد من المكان وأشمل من اللحظة، وأن تقرأ ملامح الزمن القادم من بعيد، وأن يجلس المثقف العربي في برج مراقبة، لكي ينبه كل العرب إلى أي خطر قادم من بعيد.

لتكن جائزة نوبل ما تكون، ولكنها مناسبة لأن يكتشف المواطن العربي أن هناك ثقافة عربية هامة وأن ثمة إبداعاً عربيًا متميزاً، وأن واجبه كمواطن عربي حقيقي أن يتابع هذا النتاج ويعرف كل ما هو جديد فيه.

أعرف مدى مجاملة الجائزة للصهاينة، ولكن لماذا لا نستخدم مكر الثعلب جاءت له متأخرة، ولنسأل عن قيمة هذا العملاق ونقارنها بقيمة عشرات من الذين حصلوا عليها في السنوات الأخيرة لكي نعرف الفارق الحقيقي.

إن العرق الذي بذله الرجل في الكتابة، ونـور عينيـة وخفق فؤاده يستحق ما هو أكثر من الجائزة ألف مرة.. التي جاءت له متأخرة ولم تقدم لعمالقة قبله في مصـر والـوطن

العربي.. تبقي آخر القضايا. لقد أشارت حيثيات مـنح الجـائزة

إلى روايته الجميلة «أولاد حارتنا» ثم أليس غريبًا أن هـذه الرواية ما زالت حتى الآن – ومنذ سنة ٠٧٩١ – ممنوعـة في كل الدول العربية باستثناء لبنان؟! ألا يتطلب ذلك إعـادة نظر في الموقف من هذه الرواية؟! وهل يظل قرار صـادر منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ساري المفعول حتى الآن؟!

كيف هذا؟! ثم

لا أحب أن نبدو وكأننا اكتشفنا نجيب محفوظ مـن جديد لأن الخواجات منحوه جائزة نوبل، لا أحب أن تطاردنا عقدة الخواجة حتى ونحن نحصل على نوبل لأول مرة فـي

التاريخ. المهم في وسط كل هذا، لقد قرأت الحدث على النحـو

التالي:

ها هو قم عربي يغطي على أنباء قمر العدو الإسرائيلي..

قمرنا أديب وروائي وكاتب ومبدع..

وقمرهم ليس له هدف سوى التجسس..

وذلك هو الفارق بين صناع الحياة وبناة الحضارة ودولة الأشرار وشذاذ الآفاق.

٩٢ أكتوبر ٨٨٩١

يوم خاص في بيت نجيب محفوظ

كان الاختيار دقيقاً وحاسماً، والاختيار هو الرجل، وهكذا جاء السؤال الأول إلى ذهني، بعد إعلان فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل: هل يضحي نجيب محفوظ ببرنامجه اليومي الصارم لأنه حصل على جائزة نوبل؟ أي هل يتنازل عن طقوسه التي تعود عليها منذ أكثر من نصف قرن، لأن الفريد نوبل جاء ومع كل أعلام العالم وأضوائه؟ أم يبقي النظام الحديدي الذي لم يخرج عليه أبدا من قبل كما هو؟

كان اليوم هو الخميس، وبعد تناول طعام الغداء الذي يبدأ في الثانية الأربعاء بعد الظهر، ولا بد وأن ينتهي لكي يبدأ النوم الذي يمتد إلى الثالثة والنصف.

بعد النوم بقليل جاء الزلزال، اهتز الكون وأصبح سيد البنائين العظام في الرواية العربية أول عربي يحصل على نوبل دخلت زوجته التي لم يكن يعرفها أحد من قبل.. واسمها عطية الله إبراهيم – وهو يناديها عطيات – دخلت غرفة النوم لكي توقظه: ((نجيب نجيب.. أصحى، أنت أخدت نوبل)) قال لها: «يا شيخة كفاية أحلام.. سيبيني أنام شوية».

كان سفير السويد في البيت. جاء بدون موعد سابق لكي يبلغه القرار. كان من المفروض أن يتحرك نجيب محفوظ في الرابعة والنصف سيرًا على الأقدام إلى كازينو قصر النيل حيث يلتقي بجماعة الحرافيش ويبقي معهم حتى الثامنة مساء، ومن الكازينو يتوجهون جميعاً إلى منزل الكاتب عادل كامل في حي الهرم. قال لي نجيب محفوظ أن أصل كلمة الحرافيش هو «الحارة مافيش» أى عندما يظهرون في الأفق لا أحد يبقي في الحارة أبداً، من الخوف والرعب والقهر ويكمل جمال الغيطاني أن الكلمة وردت لأول مرة في كتابات ابن إياس والجبرتي.

وقفت في بيت نجيب محفوظ الذي أدخله لأول مرة في حياتي، وشكراً لنوبل فهو السبب في هذا الاقتحام جاء الوقت وسألت نفسي عن اختيار الرجل. كنت في انتظار التصرف في الموقف الذي سيعكس جوهر الرجل بعد نوبل.

قبل أن أتخيل شكل الإجابة كان قد تصرف، ترك نوبل وجائزته والدنيا كلها والعالم بما فيه وذهب إلى أصدقاء عمره من أجل سهرة حافظ عليها طوال سنوات عمره، بقيت زوجته في البيت ومعها ابنتاه: أم كلثوم التي تعمل في شركة

لأدوات تصوير المستندات وفاطمة التي تعمل في شركة لتجار السلاح، قالت لي زوجته أن الأولى تحمل اسم أم كلثوم والثانية تحمل اسم أم كلثوم في فيلم فاطمة. بعد مشيه، فصلت زوجته الرجال والنساء الرجال في الصالون، والنساء في غرفة النوم.

انتقلت الزفة من البيت إلى الكازينو ببساطة وهدوء تحدث مع الدنيا كلها ولكن ما أن أتت الساعة الثامنة، وبدون أن ينظر في ساعته أدرك الوقت الحقيقي لأن الساعة المزروعة في أعصابه الداخلية نبهته إلى ذلك.

قال لي الفنان أحمد مظهر، وهو أحد الحرافيش أن الجائزة جاءت يوم الخميس لأنه يوم سهرنا.

وهنا فقط أدركت سر هذا الرجل الذي أعرفه أنا وصديق عمري جمال الغيطاني عن قرب شديد منذ ربع قرن مضى ، وضعت فوضى حياتنا أمام نظامه الصارم وبعثرة أيامنا التي نمارسها في كل لحظة تمر من العمر، أمام الالتزام الذي يصل إلى حدود قهر النفس، وعمرنا الذي يضيع في الكلمات والثرثرة أمام هذا الاستخدام الاقتصادي والدقيق والصارم للوقت.

إن هذا الإنسان في أعماقة ساعة مضبوطة على جوهر الأشياء وذلك هو سر – عظمته – نحن نتصور دائماً أن الإبداع هو عملية فوضى يومية، نقول أن النظام والدقة يقتلان العملية الإبداعية، وإن النظام يحول الكتابة إلى وظيفة، بكل ما في الوظائف من روتين، أما هو فيقول لي دائما أنه يكتب كل يوم، في ساعة معينة، وإن لم يكن لديه ما يكتبه فإنه يحضر ورقة وقلماً ويكتب حتى لو كتب رسالة إلى نفسه.

هل تتصور إن هذا الرجل الذي تعدى السبعين من العمر لا يغفل الرد على رسالة واحدة تصل إليه من قارئ؟ وإنه يخصص يوماً محدداً كل أسبوع لكتابة الردود بخط يده! وأنه لم يهد إليه كتاب لم يقرأه؟ أهديت له روايتي الأولي «الحداد» وبعد أسبوع قال لي رأيه فيها، العيوب والحسنات واكتشفت بعد سنوات أنه كان على حق ويفعل الشيء نفسه حتى الآن معي ومع الآخرين جميعًا.

في السادسة والنصف، بعد أن يكون قد أفطر وقرأ بعض الأشعار يمشي علي قدميه من العجوزة، حيث بيته، غلى مقهى على بابا في ميدان التحرير، يصل المقهي في

السابعة والنصف يبقي في المقهي ساعتين يقرأ الصحف ويلمع حذاءه ويشرب فنجاناً من القهوة السادة كل ساعة ومعه سيجارة خفيفة.

الصحف والمجلات، يقدمها هدية للجرسون في المقهى ويعود إلى البيت، حيث يصل إليه في العاشرة والنصف صباحاً يبدأ في الكتابة حتى الثانية إلا ربعا.

ولا يخرج من البيت في المساء إلا يومي الخميس والجمعة في الخميس يذهب إلى شلة الحرافيش وفي الجمعة يجلس مع الأدباء في كازينو قصر النيل، وباقي أيام الأسبوع يبقي في البيت يقرأ حتى تتعب عيناه فيبدأ في الفرجة على التليفزيون ويفضل الأفلام والمسلسلات الأجنبية لأن سمعه ثقيل ويقرأ الترجمة بسهولة أكثر من سماع الحوار. يخرج في وسط النهار مرتين في الأسبوع أيضا، مرة يوم الخميس حيث يذهب إلى مكتبه في الأهرام، ويجلس في مكتب مشترك مع الدكتورة بنت الشاطئ ويوسف جوهر ويوم الجمعة يخرج مع العائلة إلى مطعم «خرستو» في الهرم لكي يتناولوا طعام الغداء من السمك.

سألت زوجته عن أموال الجائزة، فسألتني عن قيمتها بالمصري، وهل تؤخذ منها جمارك أو ضرائب قلت لها مليون جنيه صافية، قالت لي أن حلمها الأول هو الانتقال إلى شقة أوسع وأعلي حيث أنهم يعيشون منذ سنة ٤٥٩١ في شقة دور أرضي، ولكنها تخشى رفض نجيب بسبب حرصه وإحساسه أنها – أي زوجته – مبذرة مالياً، لدرجة أنه هو الذي يتولى الإنفاق على البيت بنفسه.

هذه صورة تذكارية لنجيب محفوظ ما قبل نوبل، ونجيب محفوظ الذي حصل على نوبل لتوه.

السؤال الآن: ماذا ستفعل نوبل وأضواء الشهرة بهذا الصابر المصري ابن البلد الأصيل؟!

نجيب وحده هو الذي سيقدم الإجابة بسلوك ما بعد نوبل.

٥ نوفمبر ٨٨٩١

القراءة في خطر

هل صحيح أن زمن القراءة قد ولى وأصبح من مخلفات القرون الماضية؟ وهل من المعقول أن العصر الذهبي للقراءة يمتد فقط من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن العشرين؟

لا مفر إذن من مواجهة الأسئلة الصعبة التي حاولنا ونحاول الهروب منها منذ سنوات.

عن نفسي، أعيش منذ فترة يقينًا صعبا، وهو أن لا أحد يقرأ، وأننا معشر الأدباء نكتب لكي نقرأ نحن ما نكتبه، بعيداً عن جماهير القراء التي كانت، والتي لم يعد لها وجود.

كنت أتصور من قبل أن الأمية الرهيبة، ذلك الغول الذي يتضخم سنة بعد أخرى، وأن زمن الإعلام الذي وصل حتى إلى غرف النوم، قد تآمر معا على القراءة لدرجة أن عملية القراءة تصبح في هذه الحالة نوعا من الاختيار الصعب، وأن ارتفاع أسعار الكتب، ذلك الوافد الجديد، قد أتى لكي يزيد من صعوبة الأمر حيث إن المواطن العادي يجد نفسه في مواجهة غلاء كل شيء فيقوم بعمل أولويات تصبح الثقافة ترفاً لا يجرؤ حتى على الحلم به.

متابعتي للواقع الثقافي العربي الراهن كانت تؤكد لـي أن الأدباء والكتاب والمفكرين الذين خرجوا من دائرة هـذا الحصار اللعين وأصبحوا جمـاهيريين، أي مـؤثرين فـي الجماهير، خارج نخبة المثقفين وصفوة الساسة، إنما عرفـوا طريقهم إلى الناس عبر وسائل أخرى غير الكلمة المكتوبة.

معظم الذين عرفوا نجيب محفوظ ويوسـف إدريـس وعبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس، إنما جاءت هـذه المعرفة من خلال السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيـون، وبعد ذلك ربما كانت هناك قراءات للبعض منهم، لكن جوهر العلاقة إنما تم عبر المشاهدة.

كان الخيال يصل بي إلى تصور أن العـرب ظـاهرة صوتية، وإن الأذان تقود المواطن العربي أكثر مـن العـين ولذلك فهو يفضل أن يستمع أكثر مما يقرأ وحتى عندما يقرر أن يستخدم عينيه فان هذا الاستخدام يتم من أجل المشـاهدة والرؤية أكثر من استخدامها من أجل القراءة.

ذلك أن القراءة عملية متعبة، حيث تقوم العين ومعهـا المخيلة بإعادة خلق ما هو مكتوب، تمنع الأحرف الحياة لهذه الخطوط التي ربما كانت ميتة فتتحول إلى تجارب حية.

هكذا كنت أتصور الأزمة خاصة بنا في وطننا العربي، وإلى حد ما في العالم الثالث إلى أن جاء الاكتشاف الأخير.

في منتصف حزيران (يونيو) الماضي، عقد الاتحاد الدولي للناشرين في لندن مؤتمرًا عن الكتاب وصناعة النشر تحت سؤال محدد: هل أفل نجم الكتاب؟

وفي الوقت نفسه طلب ملحق (التايمز) الأدبي من محررين أدبيين ونقاد وأمناء مكتبات عامة أن يكتبوا عن التطورات التي حدثت في عالم النشر في الصين، اليابان، جنوب أفريقيا، أستراليا، مصر، إسرائيل، الاتحاد السوفيتي، بلدان وسط أوروبا وشرقها، إيطاليا ، فرنسا، السويد والولايات المتحدة الأمريكية.

ونشر ملف الندوة اللندنية، ورسائل المراسلين عن حال النشر في عدد ايلول (سبتمبر) من مجلة الثقافة العالمية التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، تحت عنوان: الكتاب وصناعة النشر.

فكيف جاءت الصورة؟!!

الحقيقة المؤلمة الأولى أن الخطر الذي يتهدد القراءة واحدوفي كافة أنحاء العالم، وأننا لسنا وحدنا في هذه الكارثة التي لا بد وأن ندرك أبعادها جيداً من الآن.

فالقراءة تعنى القدرة على امتلاك مساحة من فترات الصمت، وهذا الصمت أصبح مستحيلاً بعد هذه الحياة في مدن الصخب والضجيج، بل أن البيوت الحديثة أصبحت تخلو حتى من مكان يمكن أن يصلح لوضع الكتب فيه، والمكتبة العامة، تلك البيوت الخاصة بالقراءة، تتراجع وتختفي من حياتنا.

أن البيوت الحديثة تغطى جدرانها خزائن الاسطوانات ورفوف أشرطة التسجيل، في المكان نفسه الذي كان من المفروض أن توجد فيه الكتب.

عن دول العالم تبدو الصورة هكذا، في الصين يعاني النشر من الرقابة وارتفاع الأسعار ومشكلة التحولات السياسية العنيفة، أما اليابان فإنها ليست أرض الكتاب . وأكبر دور النشر فيها اسمها لا كتب، أي أنها معينة بنشر كل ما هو خفيف وتافه من الكتابات وأكثر الكتب شهرة،

كتاب يتحدث عن زراعة الزهور بدون استخدام التربة الزراعية.

وفي الهند يقول التقرير: أننا نشاهد احتضار الأدب.

وفي جنوب أفريقيا، الحرارة أبعد ما تكون من الكتاب.

وفي استراليا فان الكتاب يجد سهولة في نشر كتابه في انجلترا.

أما في استراليا نفسه فالموقف شديد الصعوبة.

والولايات المتحدة الأمريكية تغرق فوق بحر من الكتب. ولكن أي كتب؟ أن الإحصاء يقول أنه في العام الأخير نشر في أمريكا عشرون كتابًا كلها عن الطبخ بزيت الصويا.

ليست مهمتي في هذه المساحة تصدير أكبر قدر من التشاؤم والحزن ورسم صورة قاتمة عن الغد الآتي.

ولكن لا مفر مما ليس منه بد.

الانصراف عن القراءة يوشك أن يصل إلى جماعة المثقفين الذين اعتبرهم قراء محترفين فهما هم المؤلفون والباحثون والنقاد لا يقرأون أيضا ويعلنون أحكاماً عامة لا تقول إلا أنهم ابتعدوا عن عملية القراءة.

والآن ما معنى هذا كله؟

هل معناه أن القراءة تنقرض؟!

أما أن معناه أننا ندخل إلى عصر آخر يمكن أن يكون فيه نوع من التعامل الشفهي مع الأدب والكلمة المكتوبة؟ أي أننا ندخل إلى زمان آخر مغاير ومختلف، على الكاتب فيه أن يسجل قصته على شريط أو أسطوانة بصوته، أو أن يقف وسط الناس لكي يقول ما عنده، وهي نفسها الصورة التي كانت موجودة قبل اختراع المطبعة، هل تعود البشرية إلى زمن ما قبل التدوين؟!!

إنها أسئلة حائرة لا بد من مواجهتها نحن الذين ننتج الحرف المكتوب قبل أن ينصرف عنا العدد الضئيل والباقي من القراء. فما نكتبه لا قيمة له ما لم يجد من يقرأه.

٢١ نوفمبر ٨٨٩١

فلوس الغلابة

.... والمساكين الذين أكتب عنهم، هم المودعون، وبالتحديد صغار المودعين في شركات توظيف الأموال. أصحاب المبالغ الأقل من خمسة آلاف جنيه، وهؤلاء هم الذين سيدفعون الثمن كاملاً في نهاية حكاية شركات توظيف الأموال. الطرف الخاسر الوحيد في اللعبة كلها من الألف.

ولا ينخدع أحد منا بالرقم، فعندما أقول أنهم أصحاب خمسة آلاف جنيه فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن، إنهم من ميسورى الحال، أو حتى المستورين من الناس، فعندما نعرف من هم ومن أين أتوا بهذه الأموال، سندرك حقيقة ما يجرىلهم الآن.

الأغلب والأعم فيهم، عبارة عن أرامل ومطلقات ويتامي وأرباب معاشات وعواجيز وصغار موظفين وعائدين من الدول العربية، كان لدي كل منهم تحويشة عمره ولأنه لا يوجد مصر يكفيه دخله من عمله أو من معاشه، فلابد له من دخل آخر حتى يمكن أن يعيش على الكفاف، أي أن يعيش في حدود الحد الأدنى.

والحالات كثيرة، مواطن استبدل جزءا من معاشه وذهب به إلى شركات توظيف الأموال، وأرملة صرفت مكافأة نهاية الخدمة لزوجها المتوفي وأودعتها في إحدى الشركات لأنها تعول عشرة من الأطفال، والمعاش الذي تركه له زوجها الراحل لا يزيد عن المائة وخمسين جنيها، وسائق تاكسي باع سيارته وأودع ثمنها في هذه الشركات، وفلاح كان يملك قطعة من الأرض يزرعها ويعيش منها، فقرر أن يبيعها ويستثمر ثمنها حتى ينعم بالبطالة والكسل وعدم العمل.

بل إن هناك من باع شقته التي يسكن فيها مع أسرته، ووزع الأسرة لكي تعيش عند الأقارب وكل هذا حتى يصبح من المودعين في هذه الشركات.

أن الأمر يصل إلى حدود المأساة، عندما نعرف أن البعض ذهب إلى بنوك الحكومة المصرية، وهى البنوك التي تعانى من أزمة سيولة مالية بصورة رهيبة حيث اقترض من هذه البنوك أموالاً بسعر فائدة يصل إلى ١٥% سنويًا وأخذ المبلغ وذهب به إلى هذه الشركات لكي يودع المبالغ نفسها ثم يستفيد من فارق سعر الفائدة بين هذا وذاك.

كان الناس لديهم أكثر من عذر، فالشركات تدفع فوائد وتعلن عنها بأكثر من وسيلة، وهذه الفوائد وصلت في بعض الأحيان إلى ٥٠% سنوياً، أي أن من يدفع مائة جنيه مصري يحصل على خمسين جنيهًا كفوائد على المبلغ الذي أودعه. وبحسبة بسيطة ندرك أنه يسترد أصل المبلغ الذي دفعه في عامين فقط.

ثم إن هذه الشركات تدفع الربح بصورة شهرية، دخل ثابث يأتي من خلال هذه اللعبة الجديدة، تضع مبلغاً من المال وتذهب أول كل شهر لكي تحصل على مرتب بدون عمل، أو تعب، ويبقي الإنسان سابحاً في الفضاء والفراغ بدون أي عمل أكثر من هذا فإن هذه الشركات ترفع شعارات الدين. أصحاب الشركات لكل منهم لحية طويلة تذكر الإنسان بشكل لحية راسبوتين شخصيا، وفي منتصف جبهته ((زبيبه)) سوداء من المفروض إنها تكون من كثرة الركوع والسجود وهذا معناه – بالنسبة لوعي المواطن العادي – أي هذه الشركات لا تعمل في الربا الذي يحرمه الدين والأرباح العائدة منها محللة شرعا ودينًا.

وهكذا عرفت مصر طبقة جديدة لا يقل عددها عن ثلاثة ملايين مصري، هم المودعون في شركات توظيف الأموال كانوا يعيشون من العائد لهم من هذه الشركات والبعض منهم لم يكن له أي عائد لكي يعيش منه سوى أمواله التي أودعها لدي شركات توظيف الأموال.

أعرف أنه هناك الكثير من حيتان المصريين أودعوا أموالهم التي تحسب بالملايين، وأن هناك الكثيرين من المسئولين أدعوا أموالهم ولكن هؤلاء وأولئك عندما أودعوا، فإنما ضحوا بجزء من أموالهم، وبقي لهم الكثير من الأموال الأخرى، ثم أنهم استردوا أموالهم أو جزءاً منها عندما جاء الخراب الرهيب لأن قوانين اللعبة تفرض على الحيتان من المودعين فالحوت لا بد وأن يجامل الحوت لأن ذلك بند ثابت وأساسي في العقد الاجتماعي والاقتصادي غير المعروف في مصر الآن. فالحوت سيد البحار والحوت يبقي دائماً حوتاً بصرف النظر عن تغير موقعه في اللعبة الراهنة في مصر.

أعرف أيضاً أن صغار المودعين، هؤلاء الفقراء الذين أوشكوا أن يضيعوا تحت أرجل الحيتان، ليسوا من الملائكة إنهم ضحايا اللعب، الجهنمية، ولكن الذي أدخلهم هذه اللعبة

هو حالة من الطمع في الكسب السريع بدون أي مجهود، بالتحديد انسياقهم وراء قيم الشطارة والحظ والفهلوة، أي معاداة فكرة العمل والعرق والكفاح.

إنهم ضحايا قيم مجتمع جديد، وسلم كامل للقيم انهار تمامًا وفحش الغلاء وجنون الأسعار وانفجار مجتمع الاستهلاك. ولكن لا بد من القول أنهم أيضاً، بالقدر نفسه – ضحايا أطماعهم الشخصية، التي انقادوا لها، حتى بدون تفكير.

وهم ضحايا موقف الحكومة، التي أخذت موقف المتفرج من البدايات الأولى ولم تتحرك إلا بعد أن وقعت الواقعة وحدثت المشكلة، أي لم تتحرك إلا بعد تهريب أموال هذه الشركات – وهي أكثر من عشرة مليارات من الدولارات – إلى خارج مصر.

مع أن المبرر الوحيد لوجود الدولة – هذا الشر الذي لا بد منه ولا مفر من وجوده – أن تحمي الجانب الضعيف في الصراع الاجتماعي القائم والموجود في هذه الدولة أو تلك، ولكن المشكلة أن الحيتان هم الذين يسخرون الحكومات في كل زمان ومكان لخدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم.

في مصر الآن دراما يومية اسمها أموال المودعين في شركات توظيف الأموال. وكل يوم تسير مظاهرة أمام مقر هذه أو تلك، بل أن مظاهرة نسائية – مائة في المائة – اتجهت منذ فترة إلى مقر القصر الجمهوري لكي تقدم مذكرة للرئيس حول وضعها.

وفي هذه التراجيديا وعود من الدولة وقصص وحكايات عن أصحاب هذه الشركات، وأصحاب الشركات يهددون بإعلان ما لديهم من أسرار وخفايا – لا بد وأن تتحول ذات يوم إلى أفلام سينمائية مثيرة – إن أصحاب الشركات يهددون كل يوم بفضح من دفعوا لهم من المسئولين والكتاب وشباب الصحفيين «للأسف الشديد.. شباب الصحفيين».

ولكن الأمر الذي لا يجب أن يغيب عن أي ذهن هو فلوس الغلابة، هؤلاء الناس الذي أفقدهم الطمع الرشد والصواب، إن كل منهم يعول كوماً من اللحم عبارة عن أطفال يبدون الآن وكأنهم بدون مستقبل حقيقي، ويشكلون هما جديدًا يضاف إلى هموم هذا الوطن، الذي يأتي له كل يوم

جديد بمشكلة جديدة، وهم آخر لم يكن في الحسبان من قبل أبداً.

فلوس الغلابة أولاً.. ثم نتكلم عن أي شيء آخر.. ذلك هو الواجب الأول في هذه الحكاية المحزنة حتى الرغبة في البكاء..

٩١ نوفمبر ٨٨٩١

والله زمان يا دمشق

للقلوب أسبابها – التي لا نعرفها – عندما تحب وللقلوب أساليبها – التي لا نسيطر عليها تماما – عندما تعبر عن هذا الحب. ونحن لا نملك سوى أن نترجم هذا الهوى والحب والعشق إلى كلمات ونحلم في كل الأحوال أن تعبر كلماتنا عن حبنا، ولكن هيهات.

كنت وما زلت وسأبقى، شامي الهوى، دمشقي العشق، والحب، وحب الديار وعشق الأوطان والوقوع في سحر غرام المدن هي من الأمور التي تفوق حب البشر فلكل وطن ألف وجه ووجه، ولكن المدن أبواب وميادين وسراديب وشوارع أمامية وحواري خلفية، وأنها وسكان وطعم خاص.

أحد عشر عاماً من الزمان، تفصل بين زيارتي الأولى، وزيارتي الثانية – والتي أتمني وأحلم ألا تكون الأخيرة – لدمشق، جئت لأول مرة في أوائل سنة ٧٧٩١ قادما من بغداد، وتحركت من دمشق إلى القاهرة بعد أسبوع قضيته فيها – هذه المرة حضرت من القاهرة فوراً على طائرة سودانية كانت محطتها الوحيدة بين الخرطوم ودمشق هي القاهرة.

في الزمان الأخضر الجميل، ونحن في عمر الصبا الباكر كنت أفتح الراديو في قريتي البعيدة فيأتيني الصوت الذي يتحدث عن الرحلة القصيرة من الموسكي إلى سوق الحميدية، وكيف أن القلب يعرف الطريق بمفردة لا يحتاج إل من يقوده أو يدله على طريق العشاق.

كانت الرحلة قصيرة، حتى في زمننا هذا العصيب، وكان يمكن أن تكون أقصر لو كانت فلسطين قد استعيدت والقدس قد تحررت، وعندما كنا على ارتفاع شاهق، جاشت النفس بحلم الزمان الذي مضى، والذي لا نجرؤ حتى على التحديق به في أعماقنا، ولو في السر في تلك الأيام التي باعدت بيننا وبين أشيائنا الجميلة كلها مرة واحدة.

يبدو أنه مكتوب علينا، أن تصبح أجمل الأشياء هي تلك التي مضت ،أكثرها إثارة للشجن هي التي تسكن بيوت الذكريات القديمة.

لكن دعونا مما جرى وما كان، وما صار إليه الحال، الحكاية مثل الهم على القلب وتقليب المواجع ربما يفسد شجن هذه اللحظة، يكفي أنني – مرة أخرى – في الطريق إلى عشقي وحبي الذي اسمه دمشق، المدينة التي تختصر في

شوارعها كل بر الشام مثلما تختصر القاهرة كل بر مصرفيها..

والمدن مثل البشر، لها حضورها الخاص وبعض الأمكنة لها عبقرية متفردة وبعضها عادي، ودمشق مدينة تفتح لك ذراعيها وتحتويك بدفء إنساني نادر والمكان الذي يشكل المدينة له عبقرية من النادر أن يخف تأثيرها في النفس أبدا، ودمشق من المدن التي ترفض التكرار، توجد مرة واحدة وتمضي.

مدينة يحضنها جبل في حالة نادرة من العناق الأبدي، الجبل حولها دائرة من الخضرة الجميلة. ولا أحد يعرف متى بدأ العناق ولا إلى متى يستمر، والمدينة نفسها يبدو أنها كانت في الأصل والأساس حديقة – لا حد لجمالها أبداً – ثم تحولت أجزاء من بستان الوداد الدمشقي إلى بيوت وشوارع وميادين ولكن بقيت كل ملامح الحدائق فيها حيث تجد الخضرة في كل مكان تذهب إليه، خضرة هادئة تتسلل إلى النفس فتستقر فيها ولا تبارحها أبداً.

وبردي يتحول عندما يقبل ثغر دمشق الجميل إلى أنهار سبعة واحد يرويها بالماء والثاني يقدم لها الشهد كل

صباح والثالث يهديها العسل ، والرابع ينشر في أجوائها المسك ويضمخها به والخامس يجعل من بعض شوارعها فينيسيا الشرق العربي، والسادس يهدهدها قبل النوم بحكايات الزمن الذي مضى والسابع – ولن يكون الأخير – يؤذن في فجرها، يقول لها، ينادى، يهمس في حبة القلب منها يناجيها صبرا على بعض الصعاب يا دمشق الجميلة إن موعدنا هو

الصبح. للقاهرة أبوابها ولدمشق أنهارها، وللقاهرة أجزاء بقيت
من سور قديم كان يحيط بها في الزمن الذي كانت المدن في أمس الحاجة إلى من يحميها وفي دمشق - أيضا – أجزاء من سور قديم والتشابه بين السورين، سور القاهرة وسور دمشق يثير أكبر قدر من الدهشة.

ودمشق لا تسلم أسرارها للعشاق مرة واحدة، كل مدن الشرق العريقة التي يقف وراءها تاريخ عتيق تريك كل يوم وجهاً من وجوهها ولا تحاول أن تعد هذه الوجوه ولا أن تعطيها رقماً فالوجوه بدون عدد، تبدأ الرقم واحد، ولكن لا نهاية أبداً لأرقام الوجوه، ومدن الشرق السحرية تبدو مثل متاهات الحكايات الشعبية القديمة.

وفي لقائي مع دمشق، لا أملك سوى المقارنة الدائمة بين القاهرة ودمشق، القاهرة مدينة تحيط بها الصحارى والرمال من كل النواحي وفي بعضها الزراعة والخضرة ولكن دمشق نقطة من المباني في بحر من الخضرة والقاهرة مساحة مستوية، ولكن هنا الشوارع تصعد بك إلى عنان السماء ، ثم تنزل بك إلى أعماق سر الأسرار. والقاهرة مدينة مليئة بالمقاهي ومقاهي القاهرة من كل لون وصنف ونوع، ولكنى عاتب على محبوبتي دمشق ندرة المقاهي وقلتها. لا أعرف السبب في ذلك. وإن كنت متأكداً أن هذه المدينة كانت عامرة، في أزمنة ماضية بالمقاهي والسمر والحكايات، قرأت ذلك كثيرًا في التاريخ الاجتماعي لهذه المدينة.

ولكن المقاهي – خصوصا الشعبية منها – يبدولي أنها معلقة الآن على جدران ذاكرة هذه المدينة. أسأل نفسي، وأطرح سؤالي على شوارع المدينة: هل تحولت المقاهي – مع التطور الاجتماعي الذي لا يرحم – إلى محلات من نوع آخر؟

هل جاء زمن الاستثمارات، والمشروعات، فتحولت المقاهي من أماكن للقاء الناس إلى أماكن أخرى، لمشروعات بديلة، تقوم على أساس من حسابات الربح والخسارة؟

ربما ومن الجائز أن هناك أسبابًا أخرى لهذه الظاهرة، ولكني اعتبر أن المقهى جزء من روح الشرق الجميل، وأنها تعبر عن هذا الحنين الشرقي الباحث دائما وأبداً عن أمكنة لدفء اللقاء الإنساني، بعيداً عن البيوت التي تتحول في حياتنا نحن الشرقيين إلى شوارع خلفية نحاول أن نخفي فيها كل ما يخصنا والذي نعتبره في الكثير من الأحيان أسراراً لا بد وأن نبعدها عن الآخرين، بعيداً أيضاً عن أماكن العمل بكل ما تشيعه من جو رسمي وبعيداً كذلك عن تلك الأمكنة الجديدة، التي خلقتها روح الفندقة في بعض الأحيان، ورياح التحديث والتطوير في بعضها الآخر، وإن كانا نحب هذا التحديث بعقولنا فإن القلوب تبحث دائما عن هذا الذي يخصنا نحن والذي يميز شرقنا العربي.. في مواجهة الآخرين.

أضناني البحث عن مقاهي دمشقية أجلس عليها لا لكي استريح فلست متعبًا في هذه المدينة الإنسانية ، ولكن حتى أتمكن من ممارسة هوايتي في الجلوس – بعض الوقت –

اشرب المرطبات . وأقرأ ما وراء ملامح الوجوه. وأقيم علاقة تخصني وحدي، ما بين المكان والأشياء وأقيم دروبًا بين المكان والشيء، والناس، لكن العثور على المقهى لم يكن سهلاً.. في دمشق إلى تمر – مثل كل المدن العربية – بحالة من تغيير الثياب القديمة الملامح العتيقة. وأن كنت احلم أن نبقى بعض القديم المعتق إلى جانب كل هذا الجديد الذي يأتي إلينا كل صباح.

لدمشق حضورها العبقري في الذهن، تتسلل إلى النفس لكي تبقي في ضميرها وبذرة روحها من لحظة التسلل والي الأبد.. وللمكان مذاقه الخاص جداً. وللزمان الذي يلتقي مع المكان نوع من الغنائية التي تتسامي وتصل إلى حدود الشعر في كثير من الأحيان.

وللناس والأشياء والوجوه مذاق إنساني نادر. يحاصرك هذا المذاق بحالة من الحب والعشق النادر الوجود في زمان تراجعت فيه كل الأشياء الإنسانية بصورة لا نعرف كيف تمت ولا كيف نوقفها عند الحد الذي وصلت إليه، تراجعت هذه الأشياء الإنسانية من حياتنا، لم يصل بعد إلى دمشق الفيحاء لدرجة أن الحب هنا قتال. هل وصل

الحب بأحد منكم إلى مشارف الاختناق؟ هذا ما حدث لي بالتحديد مع دمشق الشام. يحاصرني في كل مكان خدر الحب الجميل. حب المكان، وعشق الأشياء ومحبة هذا المعرض من وجوه الناس المرصوصة في حبة القلب الذي تعب من كثرة الخفقان والذي أوجع الصدر من تلك الدقات المرهقة على أبواب النفس وتخوم الضمير في كللحظة مرت على منذ أن نزلت إلى أرض الشام، وفي كل لحظة تجولت فيها في تلك البلاد لافكاك لك من الوقوع في سحر حبها.

اعترف أنني أمسكت بالقلم ذات صباح يقف في هذه المنطقة الحرجة بين الخريف الذي كتب كلمته الرمادية على وجه دمشق، وأوشك أن يمضي حتى يترك مكانه لشتاء دمشق يغسل المدينة، فيزيدها بهاء على بهاء وتصبح المدينة كل مساء مغسولة بماء المطر تشرب منه وتستحم فيه مبلولة الشعر، وعندما تستريح من ماء المطر، تجد نفسها في أحضان ماء بردي، من الماء إلى الماء تخطو وتتمايل معجبة بنفسها متباهية بجمالها.

أمسكت بالقلم، حتى أتجول به في شرايين المدينة، كي أصل إلى قلبها، وأتجول في دروبه، حتى أمسكك بسرها

المكنون، ولكني وجدت نفسي دون أن أدري أكتب قصة هذه المدينة مع قلبي ومن تلافيف روحي. بالتحديد عن تباريح الهوى التي أثارتها دمشق الجميلة في حبة الفؤاد. وفي أعماق الروح.

حتى هذه القصة شغلني عنها نوع فريد من التعب ما كنت أظن انه موجود في زماننا صدقوني إنني مختنق بحب هذه الفاتنة، متعب من البوح بعشقي، مرهق من نجوى المحبين، فهذه المدينة اجتمعت لها المعجزات الثلاث الماء والخضرة الوجه الحسن، في زمن أدارت المعجزات ظهرها له. ولذلك قلت في لحظة التلاقي «والله زمان يا دمشق» ولكن عندما تأتي اللحظة التي أمسك فيها بمنديل الوداع وألواح للشام لن أقول أبداً: وداعاً. ولكنني سأهمس: إلى اللقاء يا دمشق الشام. أما قصتي مع هذه المدينة المعشوقة فتلك حكاية أخرى..

٦٢ نوفمبر ٨٨٩١

سميح مصر درويش فلسطين

سميح القاسم في مصر لأول مرة فأسعفيني يا دموع العين. سميح القاسم في أول وطن عربي يصل إليه في عمره كله، فأين أنت يا كل مفردات لغة العرب، منذ أن وجدت هذه اللغة وحتى الآن. جاء سميح فشكشك الدمع جفوني بعذوبته الجميلة.

سميح ليس وحده. معه في القاهرة محمود درويش، الذي مر بالتجربة نفسها منذ سنوات. وكان خروجه الأول. وكانت مغامرة الخروج الأولى له إلى مصر أيضاً.

لم تكن المرة الأولى التي التقي فيها سميح القاسم. قابلته منذ عامين ولأول مرة في بلاد السوفيات، قضينا معاً أسبوعين ما بين موسكو ولينجراد ويومها كان هم سميح الأول يقابل عربًا في وطن عربي وأن يقول شعره ويغني أمام جماهير عربية وفمي واقع عربي.

وقابلت محمود درويش أكثر من مرة. في القاهرة وبغداد والجزائر وتونس وباريس.

ولكنها المرة الأولى التي التقي فيها مع محمود وسميح معاً.

وهما معا يعنيان لي الكثير، محمود من خرج السجن إلى المنفي، اختار مغامرة الرحيل وأزمة الخروج لأنه اكتشف أن البقاء في قفص السجن الصهيوني لم يعد ممكنًا.

وسميح اكتشف أيضاً أن مغامرة الرحيل وأزمة الخروج مستحيلة فقرر البقاء في سجن السجن وسجن الملاحقات وتحديد الإقامة والمراقبة وتحديد مواعيد الخروج من البيت والعودة إليه.

ولأن النضال ليس له جغرافية محددة. ولأن الهم الفلسطيني يمتد من الوطن المحتل لكي يشمل الدنيا بأسرها فلا بد من النظر إلى التجربتين معاً في إطار من التكامل وليس التناقض، والاستمرار وليس التضاد، جاءا معاً، سميح من فلسطين المحتلة، من سجن السجن ومحمود من باريس. من منفى المنفي إلى مصر في مصر، من أجل فلسطين ومن أجل مصر.

وكان الجميع في أمس الحاجة إلى هذا اللقاء.

كان المصريون في أمس الحاجة إلى هذا القادم من أرض الانتفاضة البطلة التي أوشكت أن تكمل عامها الأول، يحمل معه رائحة الحجر المسنون. كل ذرة بداخله مسكونة

بتلك التفاصيل اليومية الصغيرة والتي لا تنتهي عن الحياة الداخل. تلك التجربة الفريدة التي لا نعرف عنها سوى ما نقرأه وما نسمعه، ولكن ها هو كيان، ملئ بالحرارة، كتلة من الأحاسيس والمشاعر تقول في كل لحظة تلك هي تجربة الداخل

وكان سميح في أمس الحاجة لأن يرى مدينة واحدة فيها اثنا عشر مليونا من العرب، شوارع يمشي فيها العرب، بيوت يسكنها العرب، أوتوبيسات ومحلات ومطاعم يملؤها العرب، وأن ترحم أذنيه أصوات بالملايين لا تنطق سوى باللغة العربية طوال الليل والنهار.

كان في أمس الحاجة، لأن يرى ويسمع ويعايش ذلك الرفض المصري النبيل والعظيم لأي وجود صهيوني.

وأن يرى شارة النصر تلوح له من كل مكان في مصر. وأن يسمع في كل مكان عبارة «فلسطين عربية» وأن يكتشف أن علم فلسطين وغطاء الرأس الفلسطيني قد أصبحا يشكلان كل الكوفيات التي يتقي بها المصريون البرد القارس الذي يشيعه الصهاينة.

كان سميح القاسم رسالة الشعب الفلسطيني المحتل إلى مصر العربية ومصر الفلسطينية ومصر المصرية.. وقد جاءه الرد ((بالبريد المستعجل)) رسالة وصل الرد عليها، قبل أن تصل الرسالة نفسها.

ومحمود كان في أمس الحاجة لأي يرى الضمير المصري وهو يحتضن رحلة مثل رحلته منذ سنوات. وأن ينصت إلى القلب المصري وهو يخفق لسميح مثلما خفق له بالدقات نفسها منذ سنوات مضت. وأن يرى مع سميح في اللحظة نفسها ماء النيل وسمرة الوجوه وخضرة الزرع. وأن يسمعا تراتيل الآذان من ألف مأذنة تخرج من رحم القاهرة لكي تشرب من سماء مصر المعطرة بماء الكافور.

وعلى ضفاف النيل التقيا معاً، شاعر السجن وشاعر المنفي في محطة على طول رحلة البحث عن الوطن الحلم، الوطن الأمنية.

التقيا بجماهير مصر العربية وجماهير مصر الفلسطينية في أمسيتين شعريتين، الأولي أقيمت على مسرح الجمهورية الذي يعود اسمه إلى أول جمهورية تعلن في مصر، والكائن في عابدين، على بعد أمتار من المكان الذي

وقف فيه أحمد عرابي لكي يقول قولته للخديوي توفيق بن الخديوي إسماعيل : ((لقد خلقنا الله احراراً ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً فوالله لن نستعبد بعد اليوم أبداً)).

والأمسية الثانية على مسرح البالون المطل على نيل القاهرة حيث لا يشعر الإنسان أنه في مصر إلا بعد أن تطالعه عيناه. ذلك الأسمر الغامق العابق الذي يتبختر قاطعاً مصر من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال.

وقف محمود درويش، وقبل أن يلقى قصيدته ((عابرون في كلام عابر)) القصيدة العاصفة، قال أنه يهديها إلى ضيف ضيوف الوطن المصري سميح القاسم.

وقفت لأسأل القاهرة عن هذا الفرح بفلسطين من أين جاء؟! وكيف نرفعه إلى مستوى ما يتسحقه من البهاء والجلال والعظمة.

كان سميح يلقي قصيدته الشهيرة عن الفلسطيني الذي كان شخصاً غير مرغوب فيه، ولكن الدولة كانت قد قامت، وكان يتم إحصاء أسماء الفلسطينيين حتى يكون بين أيديهم – في القريب العاجل – جوازات سفر مكتوب عليها ((جمهورية فلسطين العربية)) وكان محمود درويش يلقي أشعاره عن

الثورة والشعب والأرض، وكانت الانتفاضة البطلة في فلسطين المحتلة تقول أن وضوء الدم لم يعد يكفي أبداً وكانت فلسطين على عرش القلب المصري، وفي القاهرة أيضا كان اللقاء الأول بين ياسر عرفات وسميح القاسم في حياتهما معاً.

ومصر كلها رحبت بهما لأنهما فلسطين، حتى الطفل الرضيع قدم لهما ضحكة في بياض الحليب وفي حلاوة الشهد، والأرغفة السمراء الخارجية من الأفران الشعبية قالت لهما أهلاً والحوارى الضيقة والشوارع المزدحمة أخذت أجازة من الزحام والخلق لتقدم لهما أعذب ابتسامة مصرية.

لقد كان اللقاء أولاً وبكراً في كل شيء المهم الآن ألا يكون اللقاء الأخير أبداً.

ولن يكون..

نقسم على هذا.

واللقاء الثاني ستكون فلسطين موعدنا ولقيانا وفرحنا..

ونحن في الانتظار.

٣ ديسمبر ٨٨٩١

مصريون في بلاد الشام

كنا مجموعة من أهل الفن نسير في أحد شوارع دمشق، وكنا كعادتنا نحن المصريين ، نمزح التسكع بالثرثرة، ذات الصوت العالي تصل إلى حدود الصياح، في بعض الأحيان، وبينما كنا نعوم في بحار الكلمات، استوقفنا الناس لكي يتأكدوا أننا «مصاروة» ولكي يتذوقوا العامية المصرية الجميلة – من جهة نظرهم – التي لم تعد تصلهم، الآن خلال الأفلام السينمائية ومسلسلات التليفزيون المصرية التي تذاع في التليفزيون السوري، وفي بعض الأحيان تليفزيون الأردن.

كانت سعادة الناس بنا تفوق القدرة على الوصف، وربما لا أغالي عندما أقول إن هذه السعادة والحفاوة بالمصريين هما أمر سوري بالدرجة الأولى، بمعنى أنني لم أتذوقها سوى في هذه البلاد فقط.

ورحلت إلى الزمان الأخضر الجميل الذي مضي، إلى العاملين الأخيرين من الخمسينات، والعامين الأولين من الستينيات عندما غنى المطرب محمد قنديل «وحدة ما يغلبها غلاب» لقد جرت مياه كثيرة في ميل النيل في بر مصر،

وفي بردي في بر الشام، وغلب الغلاب الوحدة التي كانت حلما وتراجعت لتسكن بيوت الأحلام الجميلة، التي تبقى مثل القناديل القديمة، نحبها لأنها جزء من مراحل سابقة، ولكن بقى المعنى الإنساني النبيل في بذرة روح الإنسان العادي سواء في الموسكي أو سوق الحميدية.

وعلى خشبة «مسرح الثامن من آذار» في قلب دمشق، كان الفنان صلاح السعدني يقف، يشخص ويمثل ويسيطر بطريقة نادرة على القاعة، وعندما تهكم على الوزراء في زماننا – وكان هذا التهكم خروجاً على نص مسرحية سعد الله ونوس «الملك هو الملك» ضجت القاعة بضحك وصخب غير عاديين، ولم ندرك السبب وراء هذا الحبور النادر إلا عندما أدركنا أن الصف الأول من المشاهدين أو النظارة هو عبارة عن وزراء سوريا يتوسطهم محمود الزغبي رئيس الوزراء، ولكن المفاجأة الحقيقية جاءت بعد نزول الستارة الأخيرة، وبعد أن أصر الممثلون المصريون على صعود سعد الله ونوس إلى خشبة المسرح، حيث خلع صلاح السعدني تاج الملك من فوق رأسه ووضعه فوق راس سعد الله ونوس. ولكن المفاجاة جاءت عندما طلب

محمود الزغبي رئيس وزراء سوريا أن يصعد إلى المسرح مع الدكتورة نجاح العطار وزير الثقافة، وعندما التقى رئيس الوزراء مع صلاح السعدني اكتشفنا جميعًا أنهما كانا زميلا دراسة في كلية الزراعة بجامعة القاهرة، وأن ثالثهما كان النجم المصري عادل إمام، وإن كان صلاح السعدني قد حاول أن يقول إن هذه الزمالة في الدراسة لا تنفي فارق السن بين الثلاثة، وأنه، أي صلاح – كان وما يزال وسيظل أصغرهم سنًا، بل أن فارق السن أضخم مما يتصوره الجميع وانفجر الموقف بالضحك.

وفي كلية الهندسة بجامعة دمشق، احتشد أكثر من عشرة آلاف شاب وشابة يستمعون إلى محمد منير، وهنا لا بد وأن أعترف أنني استمعت من قبل إلى محمد منير وشاهدته بصورة عابرة في بعض الأفلام، ولكنها كانت المرة الأولى التي أحضر حفلا جماهيريًا له.. وجاءت هذه المرة في دمشق الشام.

لقد ساعدتني ساعات هذا الحفل الذي لم أشاهد مثله في عمرى كله – سوى في زمن عبد الحليم حافظ – ساعدتني في حل لغز الغناء المصري منذ رحيل عبد الحليم حافظ

وحتى الآن، هذا الغناء المصري الراهن الذي يتأرجح بين حلفات الذكر والديسكو وعدوية، وها هو الفارس محمد منير، كتلة من الإحساس والمشاعر، يقف، كما قالت لي الكاتبة والشاعرة المصرية عبلة الرويني، على عرش القلب.

وسر محمد منير أنه لا يغني، ولكنه يجعل كل الحاضرون يغنون، يخرج نهائيا من تلك الدائرة الجهنمية للطرب بمعناه التقليدي، فمن قبل كان المطرب يغني والناس لا تملك سوى الاستماع، ولكن مع محمد منير الكل يغني، والناس قبل المطرب ومعه وبعده، فهو قادر على انتزاع الرغبة في الغناء، ولذلك فحضور حفلاته ليس فرجة ولا قدرة على الاستماع ولكنه مشاركة في الغناء وليس الطرب. وبالتالي فإن محمد منير ليس مطربًا ولكنه مغن، يحول ما تشعر به الجماهير – إلى غناء من ذلك النوع النادر.

لا يمكن للإنسان أن ينسى أبداً الطريقة التي خرجنا بها من جامعة دمشق، من أبوابها الخلفية هاربين من الزاحف البشري الهائل، والمشكلة أن محمد منير بعد ثلاث ساعات من الغناء، كانت الناس تطلب منه المزيد والمزيد، ولو حتى الصباح، ولا يمكن نسيان الفتيان والفتيات الذين يحملون

الأوتوغرافات للفنانة سميحة أيوب والفنانة فايزة كمال، من أجل كلمة تسجل لحظة اللقاء وتحفظه من الفناء وتبقيه كجزء عزيز في الذاكرة.

لقد سافرنا نحن المصريين، إلى بلاد عربية شقيقة أخرى كثيرة، وفي بعض هذه البلدان، كاد الملل أن يقتلنا، وأوشك الفراغ أن يلتهم كل لحظات وجودنا فيها، إلا سوريا، فكل لحظة محجوزة لدعوة، وكل برهة لا بد من تخصيصها من أجل لقاء، لدرجة أن مواعيد تناول الطعام، تحولت إلى لقاءات في الوقت نفسه مع الأشقاء والرفاق والأحبة، حتى ساعات النوم والراحة تقلصت واختصرت، تحولت من ثماني ساعات أحافظ عليها بكل دقة، لتصبح ساعتين في بعض الأحيان، بل وصل الأمر إلى عدم النوم تمامًا في الليلتين الأخيرتين لنا في دمشق.

سعد الدين وهبة، فهمي الخولي، مراد منير، محمود ياسين، يسري الجندي، نبيل بدران، عبد الرازق حسين، سناء فتح الله، عبلة الرويني، محمد الرفاعي، سعد حسن، ومن أهل الفن: توفيق عبد الحميد ، مجدي عبد الغني، لطفي لبيب، الكل يسبح في بحار الحب الشامية، تلك البحار التي

نصل إليها لأول مرة في العمر، ونحمل جميعـاً ألا تكـون الأخيرة.

بل أن زميلنا المصور الليثي محمد، تحول من تسجيل الرحلة إلى تسجيل لحظات اللقيا النادرة الحدوث، في جامعة دمشق وقبل أن يغني محمد منير ألقى شـاعران مصـريان شعرهما، أولهما ابن النيل، وهو شاعر مصري يعـيش فـي دمشق، الثاني عمر نجم شاعر العامية الذي لم يتـرك ولـن يترك مصر، ولولا ضيق الوقت وانتظار غناء منير لألقـى عمر نجم علاوة على القصيدتين، قصيدة جديدة لم يلقها بعـد عن محمود نور الدين، الرجل الثاني فـي «ثـورة مصـر» وكانت القاعة مزدانة بصور عبد الناصر، وكلمة مصر لـم تكن تذكر سوى باعتبارها مصر عبد الناصر.

لكن الرحلة لم يكن ختامها مسك كمـا يقولـون، فـي مطار القاهرة الدولي، كانوا يريدون حجزنـا فـي الحجـر الصحي لأن الطـائرة سـودانية، وفـي السـودان سـيول وفيضانات، وأصرت قوات الأمن المصـرية علـى تفتـيش حقائب اليد في أرض المطار لأننا عائدون من دولة من دول الرفض العربي، والضابط المسلح والمتجهم يبدو أنه لم يقرأ

الكلمة الجميلة المدونة على مطار القاهرة الدولي، وهي أول ما يقرأة القادم: ((أدخلوها بسلام آمنين)) الكلمة المنزلة منه سبحانه وتعالى على محمد خاتم النبيين والمرسلين، وهي الكلمة التي تلخص سر مصر كله، من الأزل وحتى الأبد نفسه وهي الكلمة التي تنزل على القلب برداً وسلاماً، وتحيي في الذهن معاني الوطنية والانتماء، ولكن الضابط أعطى ظهره لهذه الجملة، كان قاسياً، متجهماً، وقد تعامل معنا كما كنا من العدا والأعادي، ورفض حتى الاستجابة لخفة دم صلاح السعدني.

وحاولنا الخروج من أزمة الاستقبال بذكريات دافئة عدنا بها من هناك، من بلاد الشام.

سألت نفسي وأنا في الطريق من المطار إلى بيتي في مدينة نصر.

إلى أين يقودنا كل هذا الشتات العرى.. إلى أين؟!

١٠ ديسمبر ٨٨٩١

وجوه دمشقية

عند لحظة انتصاف ليلتي الأولى في دمشق، دقت يد غريبة باب غرفتي في الفندق، قمت مفزوعاً، ومن خلف الباب المغلق قيل لي أن محافظ دمشق يطلبني الآن لأمر مهم لا يحتمل التأجيل حتى الصباح.

نفضت النوم الشتوى المبكر اللذيذ عن عينى ، وبدأت في طقوس ارتداء ملابسي من جديد، ونزلت والتساؤلات تملأ رأسي وتزحم أفق خيالي عن السبب الذي يدفع محافظ دمشق لكي يرسل إلى في هذا الوقت، يطلبني.

وأنا رجل تعودت منذ سنوات القوات المسلحة وخدمة العلم المصري على النوم مبكراً، أنام في الوقت الذي يفصل بين الثامنة والعاشرة مساء، وأصحو في الخامسة من الصباح، وهكذا أصبح جهازي العصبي ينضبط على هذين التوقيتين من كل يوم.

ولذلك فإن أنصاص الليالي ، تبدو بعيدة جداً عن الوقت الذي تعودت على النوم فيه.

في مكتب المحافظ، وجدت الإجابة على كل تساؤلاتي مرة واحدة. ما إن انفتح الباب، حتى أدركت أن الذي يقف

أمامي هو الصديق القديم محمد أمين أبو الشامات، الذي تعرفت عليه منذ عامين في رحلة جميلة إلى كوريا الشمالية، كان هو ومعه تميم دعبول رئيس القسم الثقافي في جريدة ((تشرين)) السورية الحالي يشكلان الوفد السوري، ومنذ اللقاء الأول، نشأت بيننا تلك الصداقة الناردة، التي تعلو على الكثير من جزيئات الحياة اليومية الصغيرة.

في النصف الثاني والأخير من ليلتي الأولى في دمشق قمت مع المحافظ الذي يجمع كل المثقفين في سوريا على الإعجاب بجهوده، بجولة ستبقى في الذاكرة حتى آخر لحظات العمر.

كان من الواضح أن المحافظ الشاب إنما ينفض التراب عن وجه دمشق، يستخرج من تحت السطح منها مدينة أخرى بالغة الروعة، كان الرجل يعزف على وتر الأصالة في ضمير دمشق في مواجهة كل محاولات التغريب التي تتم كل يوم، لكل مدننا العربية.

أما تميم دعبول فقد شاهدني ورأني على مدى ثلاثة أيام دون أن يعرفني، ذلك أن وزني قد نقص حوالي خمسين كيلو جراما منذ أن التقينا في كوريا الشمالية، وعندما قيل له

أن هذا الذي تشاهده هو فلان كتب كلمة في «تشرين» تحت عنوان «البحث عن صديق مفقود» شكشك الدمع عيوني – لأول مرة منذ سنوات – وأنا أقرأها.

وفي بلاد الشام لي أصدقاء لم أكن قد رأيتهم من قبل، وهناك صداقات التقيت بأصحابها قبل ذلك.

ممدوح عدوان وجه دمشقي أصيل. يترجم ويقول الشعر ويكتب النص المسرحي، وله حضور متفرد ونادر ومن لا يراه كأنه لم ير دمشق كلها، وكنا قبل هذه الرحلة أصدقاء دون أن نلتقي، قرأت له وقرأ لي، وكان هو في قراءته لي أكثر إيجابية مني، ما أن قرأ روايتي «يحدث في مصر الآن» حتى أكلته يده اليمنى وحول الرواية إلى نص مسرحي قدم في دمشق ولم أتمكن من مشاهدته في حينه، لأن ذلك كان مستحيلا في زمن السادات.

وحيوية وحضور ممدوح عدوان ليستا على مستوى القراءة والكتابة فقط، ولكن في الحياة اليومية والمناقشات وتناول قضايا الواقع، وهو من أسعد المثقفين العرب حظاً برفيقة عمره إلهام التي تبدو مثل ضابط الإيقاع الذي لا بد

منه لكل فنان يحتاج إلى المايسترو الذي يضبط لـه ميـزان الأمور في الأوقات الحرجة.

دلال حاتم وعلى الجندي صديقان على الورق أيضـــاً.

دلال قصاصة تكتب للأطفال، وعلى الجندي – كما يعـرف قراءة العربية جميعًا - شاعر. وشقيقة دلال حاتم هـي هيـام حاتم التي تقوم بدور المرسال الأمين والنزيه بين المثقفين في مصر وبين المثقفين في سوريا.

والدكتورة نجاح العطار المثقفة العربية السورية – قبل أن تكون وزيرة للثقافة في سوريا – عرفتهـا قبـل عشـر سنوات مضت.. ومـا زالت – وبرغم السنوات العشر، ولهـا ذلك التألق الداخلي والقدرة على الاشتعال حتى ولو من رماد الواقع العربي الرهن، تناول كل ما يجرى في أمتنا العربيـة من منظور واحد ووحيد، إلا وهو القدرة على تغييـره إلـى الأفضل وإلى الأحسن، والعمل بدون كلل أو ملل من أجـل هذا التغيير.

على أن رحلتي الدمشقية لم تخل من المفاجآت، وكانت واحدة من أحلى هذه المفاجآت، وجود عبد الرحمن منيف في دمشق وفي مبنى اتحاد الكتاب العرب بدمشق سـهرنا ليلـة

شامية جميلة، كانت معنا السيدة سعادة زوجته، التي قابلتها منذ أحد عشر عاما في بغداد.

وكعادة عبد الرحمن منيف في النفاذ إلى جوهر أشياء والبعد عن كافة التفاصيل الصغيرة، التي ربما نتوه فيها في زحمة الحياة اليومية، قال لي: بحصول نجيب محفوظ على نوبل، تكون كربلاء العربية قد انتهت إلى الأبد.. هذه البكائية السنوية العربية التي كانت تصاحب إعلان الفائز بجائزة نوبل، والأهم أنها جاءت لمن يستحقها فعلاً من بين كل الأدباء العرب الأحياء.

وعبد الرحمن منيف كان مشغولاً منذ سنوات بثلاثية روائية هي (مدن الملح) وكان قد أصدر الجزء الأول منها: التيه والثاني الأخدود، والثالث تقاسيم الليل والنهار لم يصدر بعد، ولكن الرجل اكتشف أن الأجزاء الثلاثة ربما لا تكفي للانتهاء من هذه الملحمة الروائية. ولهذا أصبحت الأجزاء الثلاثة خمسة أجزاء انتهى من كتابتها جميعاً، وستصدر تباعاً في الأيام المقبلة.

ومن يسافر إلي بلاد الشام ولا يرى حنا مينه، كأنه لم يصل أصلاً إلى الشام، وحنا مينة ليس فقط الروائي العربي

الأول الذي يؤسس أداب البحار في اللغة العربية وتعد رائده الأول، ولكنه أيضاً ذلك الإنسان المكافح والمناضل، فقد بنى وأسس عالمة بيديه، وفيه أيضاً كافة ملامح المبدعين الكبار والعمالقة في كل زمان ومكان.

شخص متواضع وحنون وبسيط في حياته الشخصية، يتكلم فتتصور أنه يهمس همسا ويقول النكتة، فتخلع الضحكة من أعمق الأعماق، تذهب إلى مكتبة في وزارة الثقافة السورية فتقابل الكل، تحول المكتب الرسمي إلى منتدي أدبي من نوع فريد، يحضر إليه الجميع، بصرف النظر عن كافة الاعتبارات الأخرى، وفي مكتبه يقرأون الصحف ويتابعون الجديد في كل المجلات الثقافية في العالم ويمارسون احتكاك العقول بعيداً عن نميمة المثقفين.

وحنا مينة يكتب الآن نص روائي جديد وإن كان لا يحب الحديث عن نصوصه خلال الكتابة، وأنا شخصياً أفضل هذه الطريقة في التعامل مع النص الروائي الجديد.

تعرفت في هذه الرحلة إلى الكاتب المسرحي السوري سعد الله ونوس، الذي يخرج في هذه الأيام من مشارف حالة نفسية أقرب إلى الاكتئاب ومن لا يعاني من الحزن

والاكتئاب في هذه الأيام لبعض الوقت، ليس فنانا وليس إنسانا أيضاً، وتعرفت على الشاعر الكبير محمد الماغوط الذي كان يمر بحالة وفاة حماته، فكان مشغولا.

والحماة المتوفاة هي أيضا حماة أدونيس وأسعد فضه وحسن كركوتلي. والتقيت بعبد النبي حجازي الروائي السوري ابن جيلنا، وعلى الرغم من عمله مديرًا لتليفزيون دمشق، إلا أن لديه نصاً روائيًا جديدًا لم ينشر بعد. وخيري الذهبي الذي حصلت على نص روائي جديد له صدرت النسخة الأولى من طبعته قبل سفري من دمشق بساعات.

ولم أتمكن من لقاء روائيين قرأت لهما نصين روائيين من قبل، أولهما هو عبد العزيز هلال الذي أعجبتني بدون حدود روايته : «من يحب الفقر؟» وثانيهما أحمد يوسف داود الذي قرأت له من قبل روايته «دمشق الجميل» وقد عرفت أنهما اتجها إلى الكتابة للتليفزيون والسينما، باعتبار أن هذين المجالين يشكلان أدب الزمن القادم، ولم أتمكن من لقاء سفوان قدسي صديقي القديم الذي احترف العمل السياسي وأصبح الآن رئيس حزب سياسي ولم أكن أعرف من قبل بوجود أحزاب سياسية أخرى في سوريا غير الحزب الحاكم.

عدت من سوريا وأنا أحمل معي نسخاً من خمس عشر رواية كلها لروائي سوري لم نكن نسمع عنه أي شيء في مصر، هو محمد إبراهيم العلي، وقد قدمت نسخاً منها لرفيق رحلتي وصديق عمري جمال الغيطاني وبعضها لمؤسس الرواية العربية نجيب محفوظ، وأنا لم أقرأ بعد روايات محمد إبراهيم العلي وإن كان تقليب بعض هذه الروايات يقول أمرين: الأول إنها محاولات للإبداع في ظل المشروع الكلاسيكي والتقليدي للرواية العربية، وهو المشروع الذي يحاول الإبداع الروائي العربي الخروج من تحت مظلته منذ منتصف هذا القرن وحتى الآن، وحقق بعض الروائيين العديد من النجاحات في هذا الخروج الذي لا بد منه، الأمر الثاني أن هذه الروايات تلعب دوراً هاماً في التاريخ الاجتماعي لفترات من حياة الريف السوري وهو الدور الذي لعبته بعض النصوص الروائية إبان نشأة الرواية كفن جديد حيث أنه وثق للعديد من الظواهر الاجتماعية وحياة الناس، وهو دور تراجع تماما، من حياة الرواية العربية، بعد التطورات التي حدثت لها وبعد محاولة خروجها من المشروع التقليدي للقص والحكي.

كانت رحلة ممتعة، ففي هذه المدينة إبداعات أدبية هامة، وطموحات كثيرة وإن كان معظم ما تخرجه مطابعها لا يصلنا في مصر. لأسباب كثيرة المهم أن الرحلة الأولى إلى دمشق قد تمت وأحلم ألا تكون الأخيرة فهل تتحقق الأحلام؟!

ويبقى مسك الختام، لقاء ونحن في الطريق إلى المطار أقابل محمد سلمان، أكثر وزراء الإعلام الذين جلست معهم وضوحاً واختصاراً ودقة، في التعبير والتصرف لا يتحدث إلا بدفء اللغة وجمال التعبير كان اللقاء قصيرًا في عدد دقائقه ولكنه ظل مستمرًا في الوجدان حتى بعد العودة إلى مصر. وفي القاهرة كان أول ما قمت به أن اتصلت بنجيب محفوظ حيث أبلغته دعوة من محمد سلمان لزيارة دمشق فوراً، وعندما أبلغت نجيب محفوظ الدعوة ، وضع يده على صدره دليلاً على الامتنان والشكر وقال لي: كل ما أطلبه هو التصريح بكتبي في دمشق.

قلت له: أنني رأيتها بعيني، فرفع يده موضحاً: لعلك رأيت الكتب المطبوعة في بيروت، وهذه مزورة ولا يصلني عائدها.

كانت كلمات محمد سليمان هي العطر الذي رافقني في رحلة العودة إلى مصر.. فظلت معي حتى لحظة كتابة هـذه السطور.

٧١ ديسمبر ٨٨٩١

الحنين إلى الأوطان

منذ أن جاء إلى مصر عقد السبعينات، وهاجر المصريون لأول مرة، أصبحت الهجرة أنواعاً، فهناك من يهاجر من القرية إلى المدينة، ثم يهاجر من المدينة إلى الدول العربية البترولية ويعود – إن عاد – لفترة قصيرة من الوقت لكي يهاجر من جديد.

منذ أن أصبح المصريون شعباً من المهاجرين، حتى شغلتني مسألة الغربة والاغتراب والحنين إلى الوطن فالمعروف عن المصري شدة ارتباط بأهله وناسه وديارة وكرهه الشديد لمغامرة الرحيل، مهما كانت الظروف.

ولذلك فإن التاريخ الاجتماعي يسجل هجرات مصرية، تحدث كل قرن من الزمان، ففي أزمنة المماليك، وما عرف عنهم من العسف والظلم والجور، حدثت هجرة، وعندما تولى أمور مصر أبناء محمد على باشا – ذلك البناء العظيم – وانقلبت أحوال الديار، جاءت الهجرات مرة إلى الشام، وأخرى إلى فرنسا.

وفي عقد السبعينيات من هذا القرن تنوعت الأسباب واختلفت المقادير ولكن النتيجة كانت واحدة، حالة من الهجرة والرحيل من مصر.

وفي آخر السبعينات قصدتني القناة الرابعة في التليفزيون البريطاني، من أجل عمل فيلم تسجيلي عن مصر، فوجدت أن أفضل موضوع يمكن أن يخلص مصر كلها يكون عنوانه: شعب من المهاجرين.

وعندما بدأت منذ أربعة أعوام كتابة روايتي التي انتهيت منها منذ أسابيع «وجع البعاد» وكان موضوعها الأساسي، هؤلاء المهاجرين، الذين تقطعت بهم السبل عن الوطن الأم، استيقظت بداخلي من جديد ذلك الوجع الذي لا شفاء منه أبداً والذي اسمه: الحنين إلى الأوطان.

وفي الوقت المناسب تمامًا عثرت على هذا الكتاب الهام «الحنين إلى الأوطان» عندما نشر لأول مرة في مجلة المورد التراثية التي يصدرها العراق وتمنيت ساعتها أن أمتلكه ككتاب مستقل، اعتبره من أهم الكتب التي أعود إليها بين الحين والآخر.

ورغم أنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، إلا أنني فوجئت في إحدى مكتبات القاهرة الصغيرة، في حي عابدين بالحنين إلى الأوطان، كتابًا قائماً بذاته، فعدت إلى بيتي، وأنا أشعر أنني أمتلكت – مرة أخرى – الكنز الغالي، الذي يحدثني عن ذلك الوطن الجميل.. كان الكتاب منشوراً في مكتبة عالم الكتب اللبنانية..

ومما يعطي الكتاب نكهته وطعمه ومذاقه الجميل، أن عقد السبعينات كان عقد الهجرة العربية كلها – وليس الهجرة المصرية فقط – فما من دولة عربية، مهما كان نظامها السياسي، إلا وهاجر منها عدد كبير، سواء من دولة عربية ألى دولة عربية أخرى، أم من الوطن العربي كله، إلى

أوروبا.. كان يقف في المقدمة بالطبع الشعب العربي الفلسطيني، الذي بدأ الهجرة والرحيل والشتات والنفي منذ أربعين عاماً مضت، ترك هذا الشعب البطل، الوطن، ودخل إلى المنفى، سواء منفى الداخل المتمثل في الخيام، أو منفى الخارج، وما أدراك ما هو منفى الخارج.

وتتمثل مأساة الهجرة من الوطن بعد ذلك في الشعبين المصري واللبناني، حيث كان عليهما ، أن يدفعا الثمن كاملاً لما جرى في السبعينات لأمة العرب.

و «الحنين إلى الأوطان» كتاب من عيون التراث العربي، بل من أكثرها إنسانية وشفافية، ومؤلفة هو محمد بن سهيل بن المرزبان الكرخي البغدادي، وهو من علماء القرن الرابع الهجري – ومحققه هو الدكتور جليل إبراهيم العطية، الذي لم أعرفه عنه سوى أنه يعيش في باريس وأن مقدمة الكتاب كتبها سنة ٦٨٩١.

والمحقق يهدي كتابة إلى كل عربي اضطر للاغتراب طلباً للعلم أو التماساً للرزق أو فراراً من الطغيان وقد اكتشفت من مقدمة المحقق أنه يوجد في التراث العربي تسعة كتب أخرى كلها تدور حول الحنين إلى الأوطان، منها كتاب منسوب إلى الجاحظ، ومنها «أدب الغرباء» للأصفهاني و«والحنين إلى الأوطان» لأبى حيان التوحيدي، هذا علاوة على فصول في كتب التراث العربي تتحدث عن الوطن من الصعب حصرها.

وتحت عنوان «ما جاء في حب الوطن» يورد المؤلف قول النبي ﷺ : «الخروج من الوطن عقوبة» وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، «لولا حب الوطن لخرب البلد السوء» وكان يقال: «بحب الأوطان عمرت البلدان» وكان يقال أيضا: «الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد» وقال جالينوس: «يتروح العليل بنسيم أرضه، كما تتروح الأرض الجديدة ببل القطر» وقال أبقراط «يداوي العليل بحشائش أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها» وقال بعض الحكماء «وجدنا الناس بأوطانهم أقنع منهم بأقسامهم».

وتحت عنوان: «من اختار الوطن على الثروة» يقول المؤلف:

«عسرك في بلدك، خير من يسرك في غربتك» وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان والجلس مع الإخوان قيل: فما الذلة؟! قال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان.

وفي باب جعل المؤلف عنوانه «ذل الغربة يقول :«قال بعض الأدباء:

الغربة ذلة، فإن أردفتها قلة، وأعقبتها علة، فهي نفس مضمحلة.

وقيل: الغربة كربة والكربة ذلة، والذلة قلة.

وقالت العرب:

- لا تنهض عن وكرك، فتنقصك الغربة، وتضنيك الوحدة وشبهت الحكماء الغريب باليتيم الفطيم، الذي تكل أبويه فلا أم ترأف به ولا أب يحدب عليه.

وقال بعض الأعراب:

- إذا كنت في غير أهلك، فلا تنس نصيبك من الذل.

وكان يقال:

- الجالي عن مسقط رأسه، كالعير الناشز عن موضعه، الذي هو لكل سبع فريسة، ولكل كلب قنيصة، ولكل رام رمية،

وكان يقال:

- المغترب عن وطنه ومجل رضاعة كالبعير الذي ذايل أرضه، وفقد سربه، فهو ذاو لا يثمر، وذابل لا ينضر))

وفي الباب الذي جعل المؤلف عنوانه:

((ما قيل في نوح الحمام)) يورد المؤلف هذه القصة الجميلة:

- مر بشار الأعمى بباب الطاق، فسمع صياح قمرية، فقال لغلامه: انطلق فإن وجدت هذه القمرية بجناحها فاشترها ولو بوزنها ذهباً، فوجدها بجناحها فاشتراها بثلاثه دنانير، فأخذها، فلمسها بيده، ثم قال:

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمك المهراق
طربت إلى أرض الحجاز بحرقة
فشجت فؤاد الهائم المشتاق.
لعن الفراق وجذ حبل وتينه
وشفاه من سم الأساود ساقي
يا ويحه ما قصده قمرية

لم تدر ما بغداد في الآفاق
كانت تفرخ من فروع الساق
فأتى الفراق بها العراق فأصبحت
بعد الأنيس تنوح في الأسواق بي
مثل ما بك يا حمامة فاسألي من
فك أسرك أن يحل وثاقي أن
الحمائم لم تزل بحنينها
قدماً تبكي أعين العشاق..

وبعد أن قال ما قال من الشعر، أطلق الحمامة حتى تطير حرة.

وقال آخر:

حتى متى أنا في حل وترحال
وطول هم بإدبار وإقبال..
أكابد الدهر لا أنفك مغتربًا
عن الأحبة لا يدون ما حالي..
في مشرق الأرض طولاً ثم بغربها
لا يخطر الموت من ذكرى على بالي..

إنني أناشد الدكتور جليل العطية، ومن الواضح أنه يعاني من هم الاغتراب، أن يتوفر على كل ما كتب عن الحنين إلى الأوطان، وذل الاغتراب، من التراث العربي، ويجمعه لنا، وينشره، فنحن الآن في أمس الحاجة إلى الارتباط بوطننا العربي الكبير الذي كان من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر ذات يوم، ولكن هذا اليوم مضى ولم يعد له وجود ، فلا أقل من الارتباط بالوطن الذي كان: الوطن الذي لا وجود له سوى في كتب التراث وشيء أفضل من لا شيء.

٤١ ديسمبر ٨٨٩١

زيجات مصرية

كانت العروس شابة واسمها اعتماد عبد الحميد هاشم، وهي تعمل مذيعة تحت التمرين في إذاعة الشرق الأوسط المصرية أما العريس فهو أحمد توفيق عبد الفتاح، لشقيق الثاني في عائلة الريان: أشهر عائلة في مصر الآن وصاحبة شركة الريان الشهيرة لتوظيف الأموال، والتي تملك أثر من خمسة مليارات من الدولارات.

كانت العروس قد تزوجت من قبل من رجل الأعمال عادل الدفراوي وطلقت منه، وكان الحاج أحمد توفيق عبد الفتاح (الريان) قد تزوج سبع مرات طلق خمساً منهن، ومعه الآن زوجتان هن زينب وسهير، ولأن تعدد الزوجات ليس حراماً، فهو يطلب زوجة ثالثة (الثامنة بالنسبة لعدد زوجاته).

التقى الملياردير مع المذيعة المطلقة الحسناء وحدثها عن غيرة زوجتيه عليه مما يعطله عن العمل والاستقرار وهي تحدثت عن حياتها باعتبارها ابنة أسرة متوسطة الحال، وسوء معاملة زوجها السابق لها، ووصول الأمر إلى أقسام الشرطة والنيابة.

ووقع الحب من أول نظرة، واتفقا على الزواج منذ اللقاء الأول، كانت شروط الزوج أن تترك الزوجة عملها وترتدي الحجاب وأن تمتنع عن الاختلاط بالرجال في المناسبات وعن الرد على التليفونات وافقت الزوجة على جميع الشروط ما عدا ترك العمل في الإذاعة، لأنها تثبت نفسها في العمل، فعرض عليها أن ترسم لوحات من الفن التشكيلي تثبت فيها نفسها بدلاً من العمل في الإذاعة وسيقيم لها معارض كبيرة كل فترة، طلب منه تركها في العمل ستة أشهر فقط يقررون بعدها ما يكون وعلى سبيل التجربة فوافق على هذا الأساس.

في اليوم التالي وصل العريس من أجل عقد القران، ومعه الأصدقاء، والمقربين يحملون الهدايا، فتح العب وأخرج منها حلياً ذهبية وزنها نصف كيلو جرام وطلب من العروس ارتدائها بعد خلع الحلى القديمة ثم أعطاها في الحال عشرة آلاف جنيه لشراء بعض الفساتين وتم عقد القران.

اصطحب العريس عروسه وأهلها في سيارته المرسيدس المزوجة بتليفون من الذهب حتى تختار بنفسها شقة الفرح رفضت العروس الإقامة في المعادي أو الجيزة

لابتعادها عن منزل الأسرة التي تقيم في حي عين شمس الفقير وهنا تذكر أحمد الريان أنه يمتلك فيلا قريبة وكان قد نسيها ، تقع عند تقاطع شارعي القبة وجسر السويس.

انبهرت العروس وأسرتها بالفيلا، وحرر أحمد الريان عقد ببيع الفيلا لوالد العروس وحرر والد العروس عقد إيجار بالدور الأرضي من الفيلا لابنتة ، وفي صباح اليوم التالي أنطلق «مسعد» سائق أحمد الريان إلى دمياط ومعه خمسون ألف جنيه لشراء الأثاث، وعاد في نفس اليوم حتى يلحق بمحلات الموكيت وخلال ثلاثة أيام كانت الفيلا جاهزة تمامًا لاستقبال العروسين من أجل قضاء شهر العسل.

اختفي العريس خمسة أيام بلياليها، وعند العثور عليه لاتمام الزفاف كان غاضباً لأن خبر الزواج تسرب وعرفت به زوجتاه وسببن له مشاكل كثيرة، زارها في الفيلا مرتين بعد الزواج وقضى معها ليلتين فقط ثم ذهب ولم يعد، وحضر بعد فترة رجاله وأصدقاؤه فطلبوا من الفتاة إخلاء الفيلا، وعندما رفضت إخلاءها بالقوة وقدموا لها مع ورقة الطلاق شقة في مدينة نصر بديلة عن الفيلا ، وكان عمر زواجها منه، عندما جاءتها ورقة الطلاق ٥٤ يوماً فقط.

ذلك ما جرى مع أحمد الريان واعتماد هاشم.

***

أما حنا خله حنا من قرية «روينه» في صعيد مصر، فكان قد حصل على مصاغ زوجته، بعد الدخلة مباشرة، وباعه لكي يسافر إلى العراق، على أن يشتري لها مصاغاً آخر بمجرد العودة من هناك، وبعد عامين عاد الزوج، طالبته زوجته بالمصاغ فقال أنه أرسل من العراق بعض الأموال لشقيقه البدري خله لكي يشتري بها مصاغاً لزوجته عطيات عدي بخيت، ولكن البدري أنفق الأموال على ملذاته في القرية، ولم يشتر المصاغ لزوجة شقيقة حنا خله.

بعد العودة، جرت محاولات للتوفيق، وعقدت جلسات للتصفية في الكنيسة وخارجها، وكان يحضرها أعيان القرية وأهل الحل والربط فيها وعلى رأسها بالطبع القس رويس فاخر خليل، كاهن كنيسة ماريوحنا بالقرية.

كان رأي القسيس رويس طوال جلسات الصلح أن البدري لا بد وأن يعيد للزوجة مصاغها الذي أرسل زوجها حنا ثمنه أثناء عمله في العراق، والبدري لا يريد أن يعيد أي

شيء ولذلك هدد القسيس علناً بأنه سيقتله، حتى يكون هناك حل آخر للمشكلة لا يقوم على رد المصوغات إلى الزوجة.

وعلى الرغم من أن الجميع نظر إلى تهديد البدري للقس بالقتل على أنه نوع من التهويش والكلام الفارغ، إلا أن القرية فوجئت بطلق ناري ذات مساء ووجد القس رويس خليل مصاباً والدم ينزف منه بغزارة، وما لبث أن فارق الحياة بعد نقله إلى أقرب مستشفي، وكل أصابع الاتهام تشير إلى البدري، وإلى الخلاف حول مصاغ زوجة أخيه، ورأي القسيس القاطع بأنه لا بد من إعادة المصاغ إلى الزوجة أولاً، ثم يبدأ أي كلام عن إصلاح الحال بينهما وتم القبض على البدري ولكن الشرطة لم تعثر بعد على السلاح الذي استخدمه في قتل القس وكل جريمته أنه وقف مع حق زوجة طالبت بحقها.

***

أما قضية فتحي توفيق عبد الفتاح وزوجته شكرية سليمان فتبدو أغرب من الخيال نفسه.

فالزوج هو الحاج فتحي توفيق عبد الفتاح، أكبر الأشقاء الثلاثة أصحاب شركات الريان، وزوجته البالغة

الجمال شكرية سليمان محمد وقد أثمر زواجهما خمسة أولاد هم وائل (٧١ سنة) وحمادة (٥١ سنة) وهبة (٩ سنوات) وهاجر (٦ سنوات) وهند (٥ سنوات) وشكرية هي الزوجة الرابعة لفتحي الريان من بليونيرات مصر، أن كتب كل شركاته باسم زوجته الرابعة والجميلة شكرية ثم دخل مستشفى خاصاً للأمراض النفسية في مدينة نصر لكي يعالج من الإدمان.

وخلال وجوده في المستشفي حضر إليه شقيقه الأصغر أحمد واصطحبه إلى خارج المستشفي لفترة من الوقت ثم أعاده إليها وتقدمت شكرية ببلاغ إلى نيابة مدينة نصر، تقول فيه أن الشقيق عندما اصطحب شقيقه الكبير إلى الخارج جعله يوقع على تنازل له عن كل ممتلكاته وأن التوقيع غير قانوني لأن الرجل مريض ويعالج من الإدمان.

في هذه الأثناء قررت الحكومة المصرية أن تراقب الزوج والزوجة وأسندت مهمة المراقبة إلى الضابط الشاب – الوسيم طبعا – عصام عزت وبدلاً من أن يراقب الضابط الزوجة الجميلة، وقع في غرامها وهي أحبته، لأن الزواج

الذي أنجبت منه خمسة من الأبناء كان زواجاً من رجل في عمر والدها أما هذه المرة فالحب للحب فقط.

وتطورت فصول الحكاية، الحاج فتحي توفيق يطلق شكرية، ويقدم لها منحة طلاق قدرها ٠٣ مليون جنيه، وسيارة فاخرة وفيللا وما لا يحصى من الجواهر والأحجار الكريمة. وبعد انقضاء فترة العدة بيوم واحد. تقرر الزواج فالضابط الذي كان متزوجًا من قريبة له اسمها ((سها)) اكتشف استحالة البقاء في سجن الزوجية البغيض على الرغم من أن له طفلة من زوجته الأولى.

المأذون نفسه الذي طلقها من زوجها السابق الحاج فتحي الريان عقد قرانها على العريس الجديد. ولأنها ست غنية بدون حدود، قدمت للعريس ليلة الفرح هدايا عبارة عن سيارة آخر موديل ثمنها مئات الألوف من الجنيهات، وشاليهاً في قرية ساحلية سياحية في الإسكندرية، وأقامت ليلة الدخلة في قاعة ألف ليلة وليلة، وكانت ليلة من ليالي ألف ليلة، حتى كانت المفاجأة التي قدمتها العروس أمام مجتمع القاهرة الأنيق المخملي أنها لم تستأجر راقصة محترفة وقررت شكرية أن ترقص بنفسها في ليلة عرسها وأن يرقص معها

العريس ضابط الشرطة نفسه، وكانت ليلة لا تنسى في ليل القاهرة البهي.

بعد الزواج بأيام مات الحاج فتحي الريان، ولا يعرف أن كان قد مات من الإدمان، كان يتعاطى في اليوم الواحد بألف دولار ويعالج في نفس اليوم من التعاطي بألف دولار أخرى ، فسبحان من يعطي بغير حساب، أم أنه مات من شدة حبه لزوجته البالغة حد الفتنة، والتي طلقها برضاه الكامل، بل ومنحها ثلاثين مليون من الجنيهات هدية الطلاق، أم مات لأنه اكتشف أن القلوب لديها أسباب أخرى غير الملايين لكي تحب وأنه عندما تنبض القلوب بالحب، لا مفر من الاستجابة مهما كانت الظروف والمبررات.

***

وهكذا جاءت شكرية مرة واعتماد مرة أخرى لكي تحصلا كل واحدة في ليلة واحدة، على عرق وكفاح وجهد وأحلام الملايين من الفقراء والغلابة واليتامى.

وهذا أيضاً ما كان من أمر شكرية سليمان والضابط عصام عزت وزوجها الحالي والحاج فتحى الريان (المرحوم) زوجها السابق.

أما ما كان من حالي، الذي أكتب هذه الكلمات، فأقول أنه مطلوب منا نحن المصريين أن نصلي في الليل وفي النهار لأنه ما زالت على خريطة الدنيا دولة اسمها مصر وفي سجل الأوطان وطن اسمه مصر، على الرغم من كل هذا النهب والسلب الذي تعرضت له، من عجائب القدر ومن تصاريف الزمان أن مصر لم تنته بعد، وأننا لم نستيقظ ذات صباح لنكتشف أنها خلصت وأصبحت في خبر كان، ومن معجزات الدهر أن هذا الوطن الذي مات معظم أبنائه من الجوع ومات بعض أبنائه من التخمة، ما زال وطناً موجوداً، يتحدث المثقفون من أبنائه عن الانتماء وروح المجموع والتماسك الاجتماعي، وتلك في تصوري – أنا ابن من أبناء مصر التي لم تعد محروسة – معجزة المعجزات في النصف الثاني من قرننا العشرين.

انتهى الحديث عن بعض الزيجات المصرية جداً.

١٣ ديسمبر ٨٨٩١

رصيف شارع مصري

هل من المعقول أن أحمل حقائب السفر، وأشد الرحال من مصر إلى تونس، واكتشف هناك، أن أول عمل مطلوب مني القيام به هو الاستماع لمحاضرة عنوانها «رصيف شارع مصري».

الأوطان ليست ملابس يتمكن الإنسان من تغييرها، والوطن، حتى في الأيام الصعبة، يتحول إلى نوع من الهم الجميل، الذي نسعد، لأننا نحمله في حبة القلب، وضمير الروح، أناء الليل وأطراف النهار، وعندما نحمل حقائب السفر، ونلعب لعبة الحل والترحال فإن الأوطان تسبقنا إلى حيث سافرنا ونجدها هناك في الانتظار.

والمحاضرة، التي ألقيت في تونس، ألقاها عالم اجتماع مصري، هو الدكتور عبد الباسط عبد المعطي، أستاذ علم الاجتماع في كلية بنات عين شمس، ورئيس الجمعية العربية لعلماء الاجتماع وعبد الباسط عبد المعطي ليس غريبًا على فعلاوة على المعرفة الشخصية القديمة، وفضلاً عن التجربة المشابهة لنا معاً جاء هو من صعيد مصر إلى القاهرة، ورحلت أنا من دلتا نهر النيل إلى القاهرة.

العلاقة لا تتوقف عند حدود الجانب الشخصي، فقد قرأت له دراساته الهامة، وهو يقول لي كلما التقاني أنه قرأ رواياتي عند ريف مصر، والله أعلم، فأنا لست متأكداً أن هناك من يقرأ في هذا الزمان.

قرأت له ثلاث كتب، الأول: «الصراع الطبقي في القرية المصرية» والثاني، «توزيع الفقر في القرية المصرية» والثالث «تنزييف الوعي في القرية المصرية». واهتمامي بكتب عبد الباسط وبكل ما أجده من الكتابات الاجتماعية يعود إلى إيماني القاطع بأن الروائي ربما كان عالم اجتماع فاشلا. وأن عالم الاجتماع ربما كان مشروع روائي لم يكتمل بعد وأنه من الصعب، أن لم يكن من المستحيل أن تعرف أين ينتهي الروائي وأين يبدأ عالم الاجتماع في كل منهما.

والمحاضرة كان عنوانها: «رصيف شارع مصري ، من التبعية إلى الاستقلال إلى التبعية إلى الاستقلال إلى التبعية مرة أخرى» وألقاها في المعهد العالي للتنشيط الثقافي بدعوة من مدير المعهد الدكتور الطاهر لبيب والطاهر لبيب في تونس الآن مثل عبد الحليم حافظ في مصر الستينات تراه

المراهقات فتحدث لهن حالة من الذوبان في لهيب العشق وهو صاحب كتابين هامين. الأول عن سوسيولجيا الثقافة. ولكن الكتاب الثاني، الذي نشرته وزارة الثقافة السورية في دمشق، يبدو كتابًا فريدًا في بابه، فهو عن سوسيلوجيا الغزل العربي» ويبدو أن هذا الكتاب هو سر الكتاب مع كل بنات تونس.

لم أذهب إلى المحاضرة وحدي، كنا مجموعة من الأدباء والكتاب المصريين، الذين جاؤوا إلى تونس، لحضور المؤتمر الثامن لاتحاد كتاب آسيا وأفريقيا. ذهبنا: محمود أمين العالم، فتحي غانم، عبد الله الطوخي وعبد القادر شهيب. والشارع الذي اختاره الدكتور عبد الباسط موضوعًا لدراسته له أسمان في مصر اسم جماهيري، يتداوله الناس: شارع فؤاد، واسم في أوراقة الدولة: شارع ٦٢ يوليو، والدراسة عنه رصيفه بالتحديد، وكيف يرى سكان الرصيف الحياة في مصر منذ بدايات هذا القرن، حيث التبعية القوية، وحتى منتصفه حيث حلم الاستقلال، حتى الربع الأخير من القرن حيث التبعية القوية، التي هي أخطر ألف مرة من

الاستعمار القديم، وهي دراسة ضخمة بدأها الدكتور عبد الباسط عبد المعطي منذ سنوات ومن المتوقع أن يستمر في سنوات أخرى، ولذلك فإن ما قدمه في الدراسة يعد من العلامات الأولي وليس من التصورات النهائية والدراسة كلها جزء من تصور شامل للحياة اليومية في مصر.

والشارع – يقول صاحب المحاضرة – من حيث الموقع والموضوع، يحمل كثيرًا من الخصائص التي تعبر عن الشارع المصري يربط بين القاهرة والجيزة يمتد من شرق النيل حتى الأزبكية، أما القسم الثالث فهو قسم الأكابر والأغنياء الذي يخترق حي الزمالك الفاخر.

والرصيف والشارع من الكائنات الإنسانية، ليسا مجرد مكانين، ينبض بالحركة والحيوية، مسرح دائم لا تنزل ستارته أبداً الأبطال عليه وهم الجماهير يتمرون في العمل ليلاً ونهاراً.

الاستقلال كلنا نعرفه، تذوقنا حلاوته في سنوات يوليو الجميلة، والأشياء الجميلة لا تعرف أبداً.. لا تحتاج إلى تعريف في الأصل والأساس ولكن التبعية التي يقصدها الباحث ليست فرض هذه التبعية من دولة على أخرى، بقدر

ما هي تفكك المجتمع التابع وتقطع أوصاله وانهيار سلم قيمه ووقوف معتقداته في مهب الريح.

والرصيف في بولاق شعبي، له خلفية تاريخية، عربية وإسلامية ومعظم المساكن تعود إلى عصور قديمة، في بعضها مشربيات الزمان الجميل الذي مضى ومعظم السكان من الحرفيين والعمال وصغار الموظفين والتجار ومعظم البيوت القريبة من الرصيف يسكنها الباعة الذين يبيعون على الرصيف.

والرصيف في الزمالك هو رصيف السفارات ونادي ضباط القوات المسلحة والقنصليات والمدراس الأجنبية ومحلات السوبر ماركت ومحلات السمك الغالي الثمن والكباب والكفتة.

في القسم التجاري محلات من القطاعين: العام والخاص دار القضاء العالي، شارع عماد الدين. حديقة الازبكية التي غنت أم كلثوم على مسرحها وفي آخر الشارع من ناحية العتبة سوق الأقل ثروة لأنه يبيع البضائع الأقل ثمناً.

بطل الرصيف بائع فول مدمس عمره ٥٠ سنة، هاجر من إحدى قرى الوجه البحري، يسكن في بولاق يبدأ العمل وقت الفجر يدفع رشوة لأصحاب المخابز من أجل الحصول على الخبز، أهل بيته يساعدونه في إعداد الفول في البيت، أكلة الفول منذ ٢٠ سنة كانت تتكلف ٣ قروش، الآن الأكلة نفسها تتكلف ٣٠ قرشاً، أي عشرة أضعاف السعر، يقف في المكان نفسه من الرصيف منذ ربع قرن مضى من الزمان. لم يتعلم أحد من أبنائه وأهمية الفول أن المواطن كلما شرب ماء بعد أكل الفول، كلما تمدد الفول في بطنه وشعر بالامتلاء، وهذا يطيل من عمر الحكومات يعيش على رزق يوم بيوم.

في عن اللغة يقول الباحث أنها العامية المصرية في بولاق تخدم واللغات الأجنبية في الزمالك، والعامية والأجنبية معاً في الحي التجاري، سكان الحي الشعبي يعملون في الخدمة، من النساء في بيوت الزمالك ويذهب الرجال والصبية للعمل القسم التجاري ولا يحصلون سوى على الفضلات، سواء سكان الزمالك أو من أهل الحي التجاري.

وفي يوم الجمعة من كل أسبوع يصبح الرصيف امتدادًا للمسجد المقابل له، يحضر المصلون الحصير من البيوت يفرشونها على الأرض، هذا ما يحدث في المنطقة الشعبية ولكن في الزمالك والحي التجاري يفرشون السجاد العجمي الفاخر كنوع من المباهاة الاجتماعية، وبعد الصلاة يتحول المكان غلى سوق للبيع والشراء.

بائع الفول يسمع أن في مصر أحزابًا سياسية، ولكنه لا يعرف ما هي، كل ما يعرفه أن هذه الأحزاب من أجل كبار الموظفين في البلد ومن أجل المرتاحين ماليًا.

ملابس النساء شعبية في القسم الشعبي، أوروبية في الزمالك خليط من هذا وذاك في القسم التجاري، وبشكل عام كرنفال من الألوان حيث لا يوجد زي وطني يرتبط بروح

الوطن. يتحدث الدكتور الطاهر لبيب، يقول أن مادة الحياة
اليومية قد تبدو خداعة في بعض المظاهر والجوهري فيها قليل فكيف نعتمد عليها في رصد أمور جوهرية.

لكن تبقي لي ملاحظاتي، النيل يتقاطع مع شارع فواد مرتين، قبل وبعد الزمالك، فأين هو من هذه الدراسة؟ ثم أن

الشارع نفسه مغطي الآن بشارع آخر فوقه، فعن أي الشارعين يتكلم الباحث؟ الشارع الأصلي الذي أصبح خندقاً، أو العلوي الذي هو كوبري أكثر منه شارع؟ ثم أنه الرصيف افتراض ذهني، لا وجود له سوى في أذهاننا، فالتطور الاجتماعي الذي لا يرحم، لم يترك لنا رصيفاً، ثم أن هذا الرصيف يعيش فوقه حرافيش المدينة الذين يخرجون عن الهيئة الاجتماعية، ومع هذا فإن الوجوه التي قدمها الباحث هي الأفراد من هذه الهيئة فأين هم حرافيش المدينة وهوام الأرصفة؟!

ويتحدث عبد القادر شهيب، يقول، شبعنا كلاماً عن الأزمة الراهنة في مصر، لا جديد على الإطلاق في أي كلام منها، ولكن أين المخرج من هذه الأزمة، ما الحل؟! تخرج من مصر من عنق الزجاجة الرهيب الذي توجد فيه الآن؟ ذلك هو السؤال الجوهري الذي لا إجابة عليه ويرد الدكتور عبد الباسط عبد المعطي بأن كل ما قدمه «مجرد مشروع يا ناس.. وعندما يتحدد المشروع بصورته النهائية يبدأ الكلام يا ناس..».

٧ يناير ١٩٨٩

٩٨٩١ والعبور إلى الأمل!

في مصر الستينات، حيث السماحة والحب والمشروع الوطني والقومي الكبير كان كل المصريين، مسلمين وأقباط، يحتفلون بأعياد الميلاد. يودعون عاما ويرحبون بعام جديد، قرر الخروج من رحم المستقبل، ليصبح حاضرا، وكان الاحتفال بليلة رأس السنة يتم فيها بصورة تقشف حيث يبرز المعنى الروحي للذكرى.

كان المسلمون يتسابقون في الذهاب إلى حي مصر القديمة، يمرون على الكنائس، يشاركون أشقاءهم في الوطن والقدر والمصير، ليلة الاحتفال تلك.

وكنا نتحدث عن لحظة إطفاء الشموع في كنائس مصر، وانتهاء سنة وبدء سنة أخرى من العمل والكفاح والبحث عن مصر والعروبة والعالم الثالث. ومحاولة رسم النمط الشرقي في التنمية، والحديث عن رياح الشرق التي ستحمل معها الحلم الجديد في مواجهة الغرب. وكان هذا الغرب في الذهن المصري هو أمريكا والدول الأوروبية التي شكلت الاستعمار القديم من ناحية وارتبطت بأمريكا من ناحية أخرى.

الآن، يقولون للعام الجديد مرحبا. وللعام الذي مضى وداعا ولكن في فنادق الدرجة الأولى والملاهي. تحول الأمر من المعنى الروحي القديم إلى نوع من المباهاة الاجتماعي والبذخ والقدرة على الإنفاق، طبقة جديدة خرجت من بطن عقد السبعينات، شعارها المرفوع تقول كلماته: «قل لي أين ودعت السنة الماضية، وأين استقبلت النسمات الأولى من العام الجديد.. أقل لك من أنت».

وهكذا أصبح الاحتفال برأس السنة قضية اقتصادية ودينيةوسياسية، بعد أن كان الاحتفال الديني والإصغاء لأصوات التراتيل في الكنائس، ورؤية الضوء الواهن الجميل، وأصوات أجراس الكنائس تملأ ليل القاهرة الشتوي بالصوت وصدى الصوت حتى يذوب ويتلاشى عند نقطة الأفق التي تلتقي فيها الأرض والسماء.

منذ السبعينات لا يقدر على الاحتفال بهذه الليلة في الفنادق سوى الأغنياء، سواء أكانوا أغنياء المسلمين أو الأغنياء من الأقباط. أما الفقراء فلم يبق لهم سوى المكوث والبقاء في البيوت. لأنه حتى الذهاب إلى الكنائس أصبح مكلفا.. وكل هذا يدخل في بند الهم الاقتصادي.. ومنذ أن

عرفت مصر التطرف الذي يحاول أن يقول عن نفسه أنه تطرف ديني والدين منه برئ. وهؤلاء المتطرفون ينظرون إلى هذه الاحتفالات باعتبارها أعيادا مسيحية فقط. ولأن هذه النظرة أصبحت موجودة لدي البعض، فالذين يحتفلون برأس السنة – في نظرهم – متأمركون ومتأوروبون ومتغربون – يقلدون الغرب في كل ما يقوم به من أمور وما يفعله.

يحدث هذا في حين أن الله سبحانه وتعالي، هو السلام في الإسلام، والمحبة في المسيحية، والمسيحيون الشرقيون يضيفون للمسيحية كثيرا من المشاعر والروحانيات والعواطف والأحاسيس لانجدها في معظم الأحيان في المسيحية في أي مكان آخر من العالم.

ما علينا من كل هذا، اعترف أنني أمسكت بالقلم، لكي أحول هذه المساحة، ولو لمرة واحدة، إلى مكان للفرح والاحتفال وتبادل التهاني. كانت رغبتي الأولى أن أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات: كل سنة وأنت طيب وأن احلم معه بسنة أخرى جديدة، أى تكون جديدة في كافة أيامها ومعانيها ودلالاتها، ولكن هل كل ما يتمنى المرء في زماننا هذا يدركه؟!

يبدو لي أن الفرح ليس من الكلمات المعروفة في أوراق أقدارنا. وأن تذوق السعادة لم يكتب لنا بعد. فعند بداية سنة أخرى، يصبح السؤال المشروع هو: أي الهموم نودعها مع السنة التي مضت، وما هو الجديد، الذي قد تحمله لنا سنة أخرى تضاف إلى أعمارنا؟!

عند الحديث عن الهموم، التي استطاعت أن تعبر معنا من السنة التي مضت إلى السنة القادمة، لا بد وأن نكتشف ما هو الجديد الذي يمكننا انتظاره مع هذه السنة الجديدة.

أفريقيا عبرت من سنة إلى أخرى ومعها المجاعات وآسيا عبرت بين العامين ومعها السيول والكوارث الطبيعية. واحدة من صنع البشر والأخرى تفعلها الطبيعة بنا. ولا أمل في حل هذه ولا تلك، صناعة الفقر في آسيا وصناعة الجوع في أفريقيا قائمتان على قدم وساق، والأغنياء في شمال العالم يوشكون أن يصيبهم الاختناق من زحام ما يأكلونه، جنوب يموت من الفقر وشمال يموت من التخمة في العام المقبل أتوقع أن يزداد الفقر فقرا، وأن يزداد الأغنياء غنى، برغم كل ما نسمعه عن أزمات الشمال.

كان العام الماضي عام التعايش بين الجبارين، لأن زمن المواجهة قد مضى، ولا مفر من الحوار والتعايش.

وقد حلت بعض المشاكل فعلا. وبقى بعضها معلقا والمشاكل التي حلت هي تلك التي كانت تتطلب أن يتقدم السوفيات بالحلول لها، مثل أفغانستان، أما تلك التي تتطلب حلولا من الأمريكيين فما زالت تراوح مكانها مثل الشروق الأوسط، وفي الشرق الأوسط قال العرب فكرة التعايش، ولكن الطرف الآخر ورد بالتطرف والإرهاب، وفي الدولة الصهيونية هناك حزب يقول لا. والآخر يقول لا ولكن، ووقعنا في الوهم وسمينا الأول بالصقور والثاني بالحمائم وأن كان الفارق بين الصقر والحمامة لا وجود له. قال العرب النضال الدبلوماسي، وكفاح الحوار، ولكن الأعداء لا يسمعون ولا يرون ولا يتكلمون ولكن فقط يضربون، ومن البيت الأبيض يرحل ريغان الأول ليحل محله ريغان الثاني المسمى خطأ جورج بوش، وفي فلسطين المحتلة الغي المحتلون احتفالات رأس السنة في بلد المسيح عيسى بن مريم. ويقولون بصلف وغرور في انتظار بيان الانتفاضة الأخير. وفي لبنان يخشى كل الشرق التقسيم الأخير. وفي

الخليج العربي خرج الموقف من الحرب المعروفة إلى زمن اللاسلم واللاحرب الذي لا يعرفه أحد. دخلت المنطقة في مرحلة رمادية، وفي السودان مشروع لإنهاء حرب الجنوب واستبدالها بحرب في الشمال بين رفاق الأمس.

والمشروع الاشتراكي على مستوى العالم يبدو متعبا حتى النخاع. يجدد نفسه ولكن من خلال تقليد المشروع الرأسمالي الغربي الذي يبدو مستريحا ومستقرا وربما مزدهرا. وطاعون الإيدز الغربي ما زال يخرج لسانه للبشرية، التي لم تتمكن من قهره حتى الآن. سقف العالم الاشتراكي يبحث عن حرية تذكرة الانتخاب ويجرى وراء الجينز، وسقف العالم الغربي يعاني من هموم الترف، ونحن في مصر ودعنا صيفا ملتهبا لكي نستقبل شتاء قارسا، وهكذا أصبحنا نعاني من برد أوروبا دون أن تكون لدينا رفاهية بلاد الشمال، ومن حر دول الخليج البترولية مع حرماننا من امكانياتها الهائلة.

سنة أخرى جديدة نعم، ولكنها بدون مشروع عربي للأمل. وبدون تصور عالمي للغد، بكل ما تحمله عادة دلالات الغد من كل ما هو جديد فعلا. هموم السنة الماضية،

بل وهموم كل السنوات الماضية تمكنت من التسلل والعبور من سنة إلى أخرى دون أن ندري كيف تم هذا.

لا أحب أن أبدو كمن يحاول إطفاء أنوار أفراح الآخرين، ولكن تلك مواجهة حقيقية للنفس، يفعلها الإنسان، لأنه يؤمن بالحقيقة التي تقول:

- اشتدي يا أزمة تنفرجي.

ما أن تصل الأزمة إلى أقصى درجاتها، حتى تبدأ بوادر الانفراج على الفور، اعتقد إننا وصلنا إلى أقصى درجات الأزمة، التي بدأت مع أول سنوات السبعينات، وأننا شبعنا من هذه الأزمات فعلا. وأن المطلوب الآن هو مقدمات الانفراج، سواء خلقنا نحن الانفراج، أو أتى هبة من الله، أو أحدثته الظروف.

بعد كل هذا الإرهاق أقول لك: كل سنة وأنت طيب وأقول أيضا للسنة الجديدة:

- اشتدي يا أزماتنا، ربما جاءت بعد الاشتداد، حالة ما من الانفراج.

٤١ يناير ٩٨٩١

الضاحك الباكي

كان بهجت قمر أغرب من عرفت، وليس أمامي الآن سوى الكتابة عنه مسبوقة بكان. ذلك أنه رحل عن دنيانا، لآخر مرة في ثالث يوم، من أول شهر من هذا العام وقصتي معه غريبة من البدء وحتى الختام، الذي خطته يد الموت.

أربع مرات فقد رأيته فيها، ومنذ المرة الأولى وحتى الرابعة والأخيرة، وكل الظروف تؤكد خلافي معه في كل الأمور، ومع هذا تسلل إلى القلب، دون أن أدري كيف ومتي حدث هذا، واكتشفت أنه يمكن أن نلاقي في هذا العالم بشرا آخرين، تضعنا مواقفنا وآراؤنا في موقف شديد التناقض معهم، ومع هذا فإن جسر التلاقي الإنساني، يبدو قادرا على تجاوز كل هذه التفاصيل..

ذات مساء قاهري قبل ستة أشهر، اقترحت على الفنانة معالي زايد أن نذهب إلى بهجت قمر، وبهجت قمر في ذهني يعني البرنامج الإذاعي الناجح :«ساعة لقلبك» عندما كان الراديو المصري متربعا على عرش الأذن المصرية، وقبل أن يظهر هذا الغول الرهيب الذي اسمه التليفزيون، وهو يعني بالنسبة لي الفنان القادر على إسعاد الجماهير العريضة

بفنه، بصرف النظر عما نراه من شروط العمل الفني و الإبداع.

كنت مرهقا من جماعة المثقفين في مصر، تلك التي وصلت بالفعل إلى طريق مسدود، وإلى بقعة منعزلة وبعيدة تماما عن حرارة الناس العاديين، عموما تلك قصة أخرى تماما. المهم أنني رحبت باقتراح الذهاب إليه.

يسكن بهجت قمر في شقة في شارع التحرير بالقرب من ميدان الدقي، أهم ما فيها حجرة مكتب واسعة، يكتب فيها بالنهار ويذهب إليها كل خلق الله في الليل، والليل يبدأ من التاسعة مساء ويمتد حتى الخيوط الأولى من الفجر. وذلك اللقاء الحميم يتكرر تقريبا كل ليلة، فصاحب البيت لا يطيق أن يقض لحظة واحدة بعيدا عن الناس.

«المندرة» أو حجرة المكتب سببت لي صدمة. عل الحيطان على مصر السابق، العلم الأخضر والهلال والنجوم، العلم الذي ألغته ثورة ٢٣يوليو ٢٥٩١ وصورة الملك فاروق وأسرته ووالده، وصورة كبيرة للجنيه المصري القديم، إنها ليست صورا معلقة ولكنها موقف محدد.

شعرت أن صاحب البيت يريد أن يتوقف عند آخر ليلة في مصر الملكية، ويبقى عند هذه اللحظة الزمنية ولا يتجاوزها لحظة واحدة، والمشكلة أن الزمن لا يحقق رغبات أحد أبدا. إنه مستمر في تدفقه وتقدمة وسريانه رغم إرادة البشر جميعا، بل أنه يخرج لسانه الجهنمي لكل من يقاوم، أو يفكر بمقاومة تلك القدرة الفريدة على الجري إلى الأمام.

قبل أن أجلس، ولكي أكون واضحا ومحددا، قلت إنني ما تعلمت لولا ثورة يوليو، لولاها ما دخلت مدرسة، فأنا ابن أسرة كانت وما زالت وستظل من الأسر الفقيرة، لم يكن من حقنا في مصر الملكية أن نتعلم وأن نشعر بكرامتنا وإنسانيتنا، قلت إنني مستعد للدفاع حتى عن «أخطاء» هذه الثورة العظيمة، تلك الأخطاء التي لا وجود لها سوى في خيالات وأوهام الآخرين.

جاءت ابتسامته أولا. وسبقت كركرة الضحكات ما قاله، طلب مني أن نتفق على أن نختلف، ولكن بصورة متحضرة، بدون تشنج أو صراخ، ويكفي الناس أن يشبع كل منهم من الآخر بدون أي مشاكل أخرى.

كان يكتب مسرحية فكاهية غنائية استعراضية عن «شارع محمد على» الشارع الذي أخذ العز معه وراح وهكذا يرى بهجت قمر ويعتقد أنه لن يعود هذا العز إلى مصر مرة أخرى أبدا. على الجدران صورة للفنان عبد الله فرغلي، مديرا ظهره، وعلى المكتب صورة للفنانة معالي زايد، التي يرى – ومعه كل الحق في ما يراه – أنها مستقبل فن

التمثيل. من نعم الله على الإنسان أن يستمع أكثر مما يتكلم والقدرة على الإنصات للآخرين أهم من القدرة على الكلام في الفاضية والمليانة، ومن نعم الله التي لا تقدر بمال تلك القدرة على احتواء هموم الآخرين واحتضانها وتخليص كل

حامل هم من همه.

وهكذا كان بهجت قمر. كان ينصت، ولا يتكلم إلا نادرا. وكان قلبه «حائط مبكي» حقيقيا لكن فنانى مصر، وكانت ذاكرته مخزن أسرار حقيقية للواقع الفني في مصر في هذا القرن العشرين، وقد خسرنا الكثير لأنه رحل عن هذا العالم دون أن يكتب مذكراته، كان يرى أن ثورة يوليو كارثة

بكافة المقاييس، ولكنه لم يحاول أن يتاجر بهذا الموقف من الثورة أبدا. وحتى لم يعلنه في ما يكتبه من أعمال فنية.

كانت هناك بعض الكتب على الأرفف، ولكني أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، قلت ربما كانت ديكورا، نوعا من الزينة الثقافية، ولكني في الزيارات الأخرى الثلاث اكتشفت أنه يعرف جيدا ما في هذه الكتب التي تبدأ من إنجازات الراوية الأوروبية الحديثة، وحتى التراث العربي والإسلامي في عيونه الرئيسية والهامة.

رف على شفتي سؤال كالطير الحبيس، كان سؤالي: هذا الرجل المحاط بالثقافة من كل جانب، لماذا لا يكتب وفق الشرطة الثقافي في الإبداع؟ لماذا يتصور أنه لا بد من النزول إلى الناس، بدلا من محاولة الأخذ بهم إلى حيث الثقافة والإبداع؟ قالت لي معالي زايد احتفظ بالسؤال كما هو، لا تقلب المواجع على هذا الإنسان – الذي على الرغم من كثرة ضحكه – إلا أن الهموم في حبة قلبه راقات بدون حد.

كان إنسان وحيدا في أعماقه إلى آخر حدود الوحدة تزوج مرتين ولم يوفق في أي من الزيجتين، وأنجب من الزوجة الثانية ابنه الوحيد أيمن الذي تركه طالبا في

الإعدادية، وكان آخر شجرة العائلة شقيقه الفنان عبد الغني قمر مات في الغربة، بعد أن طارده من زمن السادات. ولف ودار في الوطن العربي، إلى أن مات غريبا في ليبيا، ودفن أيضا غريبا، كل أقربائه رحلوا قبله عن هذا العالم.

شعرت بعد هذا اللقاء الأول أنني أمام إنسان يقدم الضحكات للآخرين ولكنه يحتفظ بالبكاء لنفسه، حتى يأتي زمن البكاء، وشعرت أن أزمته الحقيقية هي أزمتنا جميعا، ما من أحد يفعل ما يريد هو أن يفعله، ولكن يقوم بتلك الأدوار التي تبقى لنا من العصر الذي قدر علينا أن نحيا فيه.

كان أضخم من رأيت، وكانوا يقولون عنه (الفيل) بسبب ضخامة جسده، وكان يلهث ويعمل ويضحك ويسمع ويتلقى هموم الآخرين، كسب كثيرا وأنفق كل ما حصل عليه في هذه الدنيا، لدرجة أنه بعد رحيله عن الدنيا لم يكن هناك قبر يمكن أن يدفن فيه سوى مقابر نقابة المهن التمثيلية، وكان هو أول من يدفن في هذه المقابر، أي أنه خرج من الدنيا كما دخل إليها بلا زيادة أو نقصان.

كان يكره الموت. كان يقول أن الحياة كلها أجازة قصيرة تسبق هذه الموت. وكان يقول أننا شعب يحتفل

بالموت أكثر من احتفاله بالحياة فالميلاد يوم واحد. والزواج يوم واحد. في حين أننا نبكي على الميت أسبوعا كاملا. ونبكي عليه في الأربعين، أي بعد أن يمر على رحيله أربعون يوما كاملة، وهناك السنوية، أي ذكرى رحيله كل سنة حيث لا تتجدد في كافة هذه المناسبات سوى الأحزان.

كان يكره يوم الثلاثاء والرقم ٣، لأنه ولد منذ ١٥ سنة مضت في يوم ثلاثاء، وفي يوم يحمل الرقم ٣١ وكان يخشى أن تأتي النهاية، إما في يوم يحمل اسم الثلاثاء أو رقم ٣، أو الرقم نفسه مضافا إليه أي رقم آخر.

وتعانده أقداره، فيرحل عن دنيانا فعلا وقولا في يوم ثلاثاء، وكان اليوم هو الثالث من الشهر الأول من هذا العام، وكان يخشى على ابنه الوحيد أيمن. وها هو يتركه بدون أسرة أو من يعوله وينفق عليه، وهو في منتصف مرحلة

تعليمه. كان مقياسه الوحيد للفن الجيد، هو ذلك الفن القادر على إسعاد الناس وإضحاكهم وإمتاعهم وإخراجهم من الهموم
اليومية التي لا أول لها ولا آخر. ووفق هذا المفهوم فقد أسعد فعلا الملايين بفن جميل.

ذهبت إلى جامع عمر مكرم في ميدان التحرير من أجل العزاء. سألت نفسي بمرارة: كم مرة سنقوم بهذه الرحلة لكي نودع الأحباب؟ استدار السؤال في أعماق بخبث، كم مرة ما تزال باقية في جعبة أيام العمر القليلة حتى نقول لمن يسبقوننا في الرحيل وداعا!

جلست اكتب عنه وأنا حزين، لسبب آخر غير الفقد والفراق، فالكل يذهب ولا أحد يجئ ومن ننتظره يأتي ولا يأتي، أما الراحلون فحقيقة مؤكدة، حزني كان له سبب آخر ليتني كتبت عنه هذه الكلمات في حياته، لماذا لا نسمك بالقلم لكي نكتب إلا بعد الرحيل دائما.

ربما كانت تلك أيضا واحدة من ملامح احتفالنا المأساوي بالموت والرحيل عن هذا العالم.

بقى أن أسأل القراء عذرا عن كل هذه الأحزان، وعذرى أن الضحك، منذ سنوات مضت لم يعد ممكنا.

يقول الناس، في مصر في بعض الأحيان، أن القادر على الضحك في هذا الزمان، إما مجنون أو أبله، أما العاقل فلا يمكنه أبدا استحضار بسمة ما، مهما كانت باهتة أو شاحبة إلى شفتيه.

يبدو أن الضحك والقدرة عليه ستكون بطولة الـزمن الحالي والمقبل معا.

١٢ يناير ٩٨٩١

فلسطينيون في أرض الكنانة

بعض السياحة جاءت القضية، فأبناء فلسطين حضروا إلى مصر من اجل رؤية معالمها، والتحديق بأكبر قدر من الدهشة في ملامح أول وطن عربي تمكن عرب ٨٤ من الوصول إليه، منذ النكبة الأولى وحتى الآن.

كان سميح القاسم في شجاعة حضوره إلى مصر لأول مرة قبل شهرين رائدا لهذه الخطوات التي لا بد منها.

شهران وحضر إلى مصر «أبو سلام» إميل حبيبي، بشخصيه وشحمه ولحمه ودمه وحضوره الفلسطيني النادر، جاء إميل حبيبي إلى مصر بدعوة من اللجنة المصرية للتضامن مع شعوب آسيا وإفريقيا، لكي يشارك في ندوتين أقامتهما اللجنة، الأولى عن آفاق السلام في الشرق الأوسط، والثانية عن الحوار العربي السوفيتي ومشاركة في الندوة الثانية، جاء إلى مصر أيضا، ولأول مرة منذ خمسة عشر عاما، طلال سلمان صاحب ورئيس تحرير جريدة «السفير» البيروتية، والذي لم يحضر إلى مصر منذ سنة ٤٧٩١ وحتى الآن.

على أن المسافة ما بين مصر المصرية ومصر العربية تضيق تماما، وأن مصر التي عرفناها في عقد الستينات بدأت تعود إلينا مرة أخرى، وجاء إلى مصر لأول مرة منذ ٤١ عاما كريم مروة السياسي اللبناني.

قبل إميل حبيبي جاء إلى مصر أربعة من كتاب فلسطين، هم محمد على طه وزكي درويش ونزيه خير ونعيم عرايضي، جاء الثلاثة الأول من مجلة «٨٤» وهي المجلة التي يصدرها اتحاد الكتاب العربي في البلاد، هكذا يكتبون في صدر الصفحة الأولى من المجلة، لأنه من رابع المستحيلات عليهم أن يقولوا فلسطين، هكذا يفرض العدو على الجميع، وهم من ناحيتهم يرفضون أن يكتبوا كلمة إسرائيل وهكذا ليس هناك مخرج سوى أن يكتبوا كلمة البلاد كحل وسط.

وأصل الحكاية أن سميح القاسم بعد الأيام التي قضاها في مصر، عاد إلى فلسطين، وقرر، مع هيئة تحرير مجلة «٨٤» التي صدر منها عددان فقط، ويرأس تحريرها سميح القاسم، أن تصدر المجلة عددا خاصا عن الأدب المصري الحديث.

محمد على طه، لا يذكر إن كان قد ولد سنة ١٤٩١ أو ٢٤٩١ لأن أوراق ميلاده فقدت عند التهجير. فهو ولد في قرية معار، وقد أبيدت هذه القرية تماما سنة ٨٤٩١، هاجر مع أسرته إلى لبنان ثم عادت الأسرة إلى فلسطين متسللة بعد عام، أي سنة ٩٤٩١، وبقيت الأسرة سبعة شهور تحت شجرة، أنجب ثمانية أطفال، والسبب في ذلك أنه استمع إلى غولدا مائير تقول إنها كلما تحلم بميلاد طفل فلسطيني فهي لا تنام الليل. فقرر أن يحرمها النوم ويقلق لياليها ثماني مرات، وهو يعمل الآن المحرر المسئول عن مجلة «٨٤» وسكرتير اتحاد الكتاب العرب، كما يعمل مدرسا للغة العربية في الكلية العربية وهي ليست تابعة للحكومة الإسرائيلية، له ست مجموعات من القصص القصيرة أولها: «لكي تشرق الشمس» وقد صدرت سنة ٤٦٩١، وإن كانت أشهر مجموعاته القصصية هي «وردة لعيني حفيظة» التي بسببها تعرض لعديد من المتاعب من الصهاينة، يكتب الآن أول نص روائي في حياته عن ثورة ٦٣٩١ ويربط بين هذه الثورة وثورة الحجارة.

زكي درويش يثبت أن البطن ليست قلابة في كافة الأحوال، كل من يراه ويستمع إلى جمله القصيرة والحادة يسأله على الفور: أنت شقيق محمود درويش؟! فيرد ضاحكا: محمود هو شقيقي، وزكي قصاص وكاتب مسرح هاجر من قريته وعاد إليها متسللا، خرج آداب من جامعة حيفا، وهو الآن ناظر مدرسة صغيرة.

رفض شقيقه محمود درويش أن ينشر له قصة عندما كان رئيس تحرير مجلة «الجديد» لأن القصة كان فيها أربعة تسللوا وقتلوا، وقال محمود يومها إذا قتلوا لن يكون هناك أمل. وأكد محمود أن سمة الآداب الفلسطيني في الأرض المحتلة أنه متفائل، والمناضل لا يمكن أن يكون متشائما.

له مسرحيتان هما: «الموت الأكبر» و «لا» وأربع مجموعات من القصص القصيرة هي: «شيء عن الغربة» «الحب والطوفان» «الرجل الذي قتل العالم» «الكلاب» وكانت أول قصة تنشر له عنوانها «فستان» وقد نشرت وهو طالب في المرحلة الثانوية.

نزيه خير شاعر، درس الأدب العربي والعلوم السياسية في جامعة حيفا، وهو مولود سنة ١٩٤٦ وأول عمل

نشر له كان سنة ٩٦٩١، أصدر حتى الآن ثلاث مجموعات شعرية هي : «أغنيات صغيرة» «قراءة جديدة لسورة الياسمين» «كتاب دموي لأبي تمام» وله تحت الطبع عملان جديدان الأول في القاهرة، ومن المتوقع أن يصدر عن هيئة الكتاب المصرية، وعنوانه «مسافة من القلب، وأخرى من الذاكرة» والعمل الثاني من المتوقع أن يصدر في فلسطين المحتلة وعنوانه «الجانب الأيسر جانب القلب».

وإذا كان هؤلاء من المبدعين، فإن نعيم عرايضي قد اختار الدراسة الأدبية والنقدية، له كتاب هام عنوانه «مسيرة الإبداع: دراسات نقدية وتحليليه في الأدب الفلسطيني المعاصر» والكتاب دراسات في أدب أبو سلمى، محمود درويش، سميح القاسم، ميشيل حداد، فدوى طوقان، إميل حبيبي ومحمد على طه، وكتاب «نافذة على الأدب العبري الحديث».

زار إميل حبيبي القاهرة والأقصر وأسوان والنوبة وقابل نجيب محفوظ، واكتشف إميل أن نجيب قرأ بعناية تامة روايته «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس

المتشائم» قال له نجيب: «أنا أقول السخرية في مجالسي الخاصة، أما أنت فقد حولت هذه السخرية نفسها إلى أدب».

وذهب أميل حبيبي في منتصف كانون الثاني (يناير) الجاري، إلى ضريح جمال عبد الناصر، لكي يشارك أسرة عبد الناصر الاحتفال بعيد ميلاده، قابل هناك في الضريح قرينة عبد الناصر ورفيقة عمره السيدة تحية كاظم، وقابل ابنة عبد الناصر الدكتورة هدي عبد الناصر وزوجها حاتم صادق وعبد الحكيم ابن عبد الناصر، ومصطفى عبد الناصر شقيق الزعيم الراحل.

كتب اميل حبيبي في سجل زيارات ضريح عبد الناصر «إلى القائد الخالد، أبو خالد: لو أنك كنت ما زلت بيننا حتى الآن، لجئت بالسلام العادل».

وفي هيئة الكتاب قرر الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة أن تشارك فلسطين في معرض القاهرة الدولي للكتاب، كدولة وليس كمجرد معرض فلسطيني، وأن يقام خلال المعرض ليلة فلسطينية كاملة، تسمع فيها الجماهير شعر محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وأن يشارك

اميل حبيبي في الندوة الدولية التي تقام عن أدب نجيب محفوظ في معرض الكتاب.

إن فلسطين النـاس والثـورة والأرض والقضـية والحجارة، تجلس الآن، كل مساء وكل صباح، على عرش القلب المصري، وكل يوم يتسع عرش القلب المصري لفلسطين حتى يشمل الدنيا كلها.

٨٢ يناير ١٩٨٩

حقوق الإنسان بين أميركا وفلسطين

كيف يبدو حال حقوق الإنسان في أميركا وحليفتها إسرائيل؟! نبت السؤال في ذهني عندما وجدت بين يدي تقرير منظمة العفو الدولية عن سنة ٧٨٩١، والسبب الرئيسي في السؤال هو أن أميركا، تقدم نفسها في عالم اليوم وكأنها المدافع – الأول والأخير – عن حقوق الإنسان في العالم وتتحدث عن إسرائيل باعتبارها واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وسط عالم من القمع والإرهاب والتخلف.

أميركا لا تفعل هذا فقط، ولكنها عندما تضبط أي انتهاك لحقوق الإنسان في دول الوطن العربي، أو الدول الاشتراكية، أو العالم الثالث، تحول الأمر إلى نوع من الفضيحة السياسية، لدرجة أنها أوشكت أن تصبح في وعي الناس صاحبة الحريات في كل مكان من أنحاء العالم.

لقد وصل الأمر في أذهاننا نحن أبناء العالم الثالث، أن أصبحت أميركا ومن يجرى وراءها هي جنة الله على الأرض، وتحول النموذج الأميركي إلى حلم قد لا نجرؤ في كل الأوقات على الحلم به، وهكذا لم يحدث أن يتبادر إلى

الأذهان – في كثير أو قليل – ما يمكن أن يقع فـي أميركـا نفسها ، انتهاكات لحقوق الإنسان، وما يجرى في إسـرائيل من قمع وإرهاب ضد الفلسطينيين.

ولكن قراءة الجزء الخاص بأميركا، والجزء الخـاص بالعدو الصهيوني، جعلتنى أرى الجانب الآخر من الصورة، الذي لا بد وأن أعترف أنني ما كنت أتصور وجـوده بهـذا القدر الضخم، لا أحب أن يفهم من هذا الكـلام أننـي أقـم مبررات – أخرى – لانتهاكات حقوق الإنسان فـي وطننـا العربي أو عالمنا الثالث أو الدول الاشتراكية، فـأي انتهـاك لحقوق الإنسان – تحت أي مسمى ومهما كانت الظـروف – حتى بدون مناقشة.

ومنظمة العفو الدولية ليست في حاجة إلى تقديم، فهي الأمل الأخير الباقي لكل مظلوم في أي مكان مـن العـالم، ووجود مثل هذه المنظمات هو قنديل أخضر، يضـيء الجانب المعتم من قلب كل إنسان يمر بمحنة ما وأزمة من الأزمات، خصوصا عندما يكون هذا الإنسان في السجن.

يقول التقرير عن أميركا أن عقوبة الإعدام قد نفـذت خلال سنة ٧٨٩١ بحق ٨١ سجينا على الرغم من كـل مـا

أعلنته أميركا عن إلغاء هذه العقوبة، بل لقد وصل عدد الذين أعدموا فعلا منذ عودة الإعدام في السبعينات وحتى الآن ٨٦ شخصا وهناك ٠٢ شخصا آخرين ينتظرون الإعدام في سجون أميركا.

كذلك حققت المنظمة في عدد من القضايا الجنائية ثبت بالدليل أن المدعين العامين فيها كانوا منحازين سياسيا ضد المتهمين، وكان هذا الانحياز موقفا مسبقا حتى على توجيه الاتهام نفسه، وقد وصلت إلى المنظمة شكاوى كثيرة عن إساءة معاملة السجناء في سجون أميركا.

ومن الحالات الصارخة التي يوردها التقرير حالة جيمس تيري الذي جرى إعدامه بالكرسي الكهربائي. على الرغم من أنه ارتكب جريمته وهو تحت تأثير رجل أكبر منه في السجن، وأنه قد ثبت علميا أنه متخلف عقليا، وأثبت الطبيب قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه أنه مصاب بمرض عصبي ونفسي ومع هذا نفذ حكم الإعدام، وهناك شخص آخر أعدم قبل أن يكمل ثمانية عشر عاما من عمره على الرغم من أن القانون يمنع هذا.

ويلاحظ التقرير أن في أميركا بعض الأحكام بإبعاد مواطنين دخلوا إلى أميركا منذ سنوات بطريقة غير قانونية وإن أحكام الأبعاد والطرد تنفذ على الرغم من أن إعادتهم إلى بلادهم قد تشكل خطرا على حياتهم.

ومن أغرب ما في التقرير أن هناك أشخاصاً أمريكيين حكم عليهم بالسجن من ثماني إلى عشر سنوات، وكل التهمة التي وجهت إلى هؤلاء الأشخاص هي التظاهر السلمي ضد الأسلحة النووية، وعلى الرغم من نبل الهدف من التظاهر، ومن سلمية التظاهر نفسه، إلا أن الأحكام كان حدها الأدنى ثماني سنوات والأقصى عشر سنوات.

وثبت للمنظمة أن سلطت كارولينا قد أقدمت على قتل سجينا اسمه ميسيون هاريس خنقا في سجنه، وقبل القتل تم ضربه بسلسلة حديدية لمجرد أنه طلب الذهاب إلى المرحاض، وأكدت المنظمة احتجاجها على حرمان المتهمين من رؤية محاميهم، ورفض الإدارة المركزية للسجون الإبلاغ عن استخدام العنف.

هذا القليل ما يجرى في أميركا، أما ما تفعله قوات العدو الصهيوني بالشعب الفلسطيني فهو: احتجاز سجناء

الرأى، إجراءات التوقيف الإداري وتحديد الإقامة، إساءة معاملة السجناء وتعذيبهم سواء في الأراضي المحتلة أو بين عرب ٧٦ أو في قرى جنوب لبنان.

تلاحظ المنظمة عدم كفاية الإجراءات الوقائية التي تمتع التعذيب وسوء المعاملة. وضعف الأجهزة الخاصة بالتحقيق في الشكاوي والادعاءات.

كذلك فإن سلطات العدو الإسرائيلي تحاكم المجندين من أبناء إسرائيل الذين يرفضون الخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي ضد أبناء شعب فلطسين وأبناء الدول العربية المجاورة لإسرائيل وذلك بدافع الضمير الإنساني فقط.

ويقدم التقرير حالة سجن ثلاثة من مجندات جيش الدفاع الإسرائيلي لمجرد أنهن رفضن أداء الخدمة العسكرية بسبب الضمير الإنساني فقط.

ويورد التقرير وقائع سجن بعض الفلسطينيين وتحديد إقامتهم بسبب معلومات لم يتم التحقيق فيها بأنهم ينتمون إلى منظمة التحرير الفلطسينية، وقد تم هذا دون أي تحقيق عن علاقة هؤلاء السجناء بالمنظمة ونشاطاتها، حيث لم تكن هناك أي أدلة موجهة ضدهم كذلك لم تكن هناك أية قرائن

تقول بأن المتهم نفسه قد مارس العنف شخصيا أو حرض الآخرين على استخدامه.

خصوصا – يقول التقرير – أن السلطات الإسرائيلية تمنع قيام أية أحزاب سياسية بصورة مشروعه في فلسطين المحتلة، وعلاوة على أن الأفعال التي أقدم عليها هؤلاء الناس تعد مشروعة في ظروف الاحتلال الصهيوني.

ويورد التقرير أن بعض الفلسطينيين قد تم سجنه بفترات تصل إلى الستة أشهر دون أبداء أي أسباب، وقد حصلت المنظمة على أسماء ٤٤١ شخصا وأودعوا السجون دون أبداء أي أسباب ومعظمهم من الطلاب ومن أعضاء النقابات العمالية .

بيدي التقرير قلقه الشديد بسبب عمليات الترحيل من الأراضي المحتلة دون أي سند قانوني، واستنادا إلى قوانين الطوارئ وحالة الحرب ووضع الاحتلال، وهي من الأمور العامة التي لا يمكن الاستناد إليها في مثل هذه الإجراءات، وقبل الترحيل والإبعاد وبعدهما، هناك قرارات الإقامة الجبرية، أي تحديد الإقامة.

قاموس التعذيب في إسرائيل فيه مفردات العالم الثالث أو الوطن العربي، وهذه هي قائمة التعذيب كما تحدث في إسرائيل: الخنق، الحرمان من النوم، الرش بالمياه الباردة المثلجة لفترات طويلة، الإذلال، التهديد، الضرب على جميع أنحاء الجسد، عصب العينين لفترات طويلة، الإجبار على الوقوف طويلا. الحبس الانفرادي، التعريض للهواء البارد ودوش المياه الباردة لفترات طويلة.

وهناك أيضا الحرمان من رؤية المحامي، ومنع رؤية العائلة والأهل والأقارب لفترات طويلة من الوقت، وأن كان هذا إنما يتم تحت الإشراف المباشر من قبل جيش الدفاع الإسرائيلي أو جهاز الأمن العام.

في الجنوب اللبناني احتجت المنظمة على خطف القرويين في منطقة الحزام الأمني، حيث تعرض سكان المنطقة للضرب بواسطة الهراوات والحقن بأعقاب السجائر والولاعات، والتعذيب عن طريق الصدمات الكهربائية، والضرب حتى الموت في كثير من حالات التحقيق، بل إن بعض المليشيات المحلية تقوم، في بعض الأحيان، بعمليات التعذيب تحت هيمنة القوات الإسرائيلية.

وهذا أيضا أقل القليل مما يجرى في فلسطين المحتلة.

يبقى أن أقول إنه إذا كانت هذه الممارسات هي المنبع، فإن المصب الحقيقي كان الانتفاضة العظيمة التي اندلعت لكي تبقى بعد هذا إلى الأبد. أو إلى قيام جمهورية فلسطين العربية..

يبقى أيضا القول أنه عندما تمارس هذا القمع سلطة وطنية، فإن الأمر أخف ألف مرة من أن تقوم به قوات احتلال. القمع قمع، ولكن في حالة صدوره عن سلطات احتلال فإنه إلى جانب الإيذاء البدني فهناك حالة من الإذلال النفسي ومن الإحساس بانكسار الوطن نفسه، وهذا يجعل من التعذيب مرة واحدة تعذيبا أكثر من مرة، يصل في بعض الأحيان إلى تعذيب مئات المرات.

يبقى أيضا، ولثالث مرة، هذا الوجه الآخر لأمريكا ولإسرائيل، وهو الوجه الذي لا نحدق فيه كثيرا، وفي بعض الأحيان لا نتصور وجوده أساسا، فيبدو لي أنه من كثرة ما يقولونه عن حقوق الإنسان نتصور نحن – في هذا الجزء من العالم – أنهم جنة الله على الأرض وقد كان هذا التصور خاطئا – بالنسبة لي على الأقل – إلى وقت قريب.

٤ فبراير ١٩٨٩

برلمان القراء

قبل أن أكون كاتباً، وقبل أن امتهن الصحافة، فأنا مدمن قراءة، وبقدر ما تسعدني لحظات الكتابة. فإن قراءة نص جيدا تصل بي – في بعض الأحيان – إلى حدود النشوة الخلاقة. وفي تصورى إن الذين يكتبون فقط تكون تجاربهم قصيرة العمر مكررة الوجه، تعيد وتزيد في القضايا نفسها، فالكتابة الجيدة إذن لا بد أن تواكبها قراءة بالدرجة نفسها من

الجودة. والقراءة ليست قراءة الكتب فقط، بل هناك قراءات أخرى قد تكون أهم من الكتب في بعض الأحيان، أتحدث عن
قراءة الصحف، والصحف المصرية على وجه التحديد. ذلك إنني عند قراءتها. أبدا دائما بالباب المخصص «لبريد القراءة» وبعده مباشرة «الحوادث» التي تجرى كل يوم. وبعد البريد والحوادث كل الباقي سواء دون أي تمييز بين هذا وذاك.

بريد القراء هو «برلمان القراء» أكثر الأجزاء في الصحف صدقاً، يكتبه أناس هم في الأصل بالنسبة لنا جنود مجهولون تماما، لكل منهم دافع ما دفعه لأن يمسك بالقلم لكي

يكتب، ويقدر مساحة الحرية المتاحة في هذا البلد أو ذاك تكون هذه الرسائل معبرة بدقة وصدق عن كل تفاصيل الواقع

اليومي. التطور الاجتماعي الذي تتعرض له مصر يعبر عن نفسه، من خلال هذه الرسائل، في أزمنة مضت، كان القراء يكتبون خواطرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم، والبعض كان يقول الشعر، وآخرون تعجبهم بعض الأبيات من الشعر

فيقومون بنقلها، وإرسالها إلى هذه الصحيفة أو تلك..

الآن، انقلب الحال تماماً، تراجعت الأمور الذاتية، وتقدم الهم العام، اختفت المشاعر والأحاسيس وبقيت قضايا الإسكان والنقل والمواصلات ورغيف الخبز، ذابت الذات في الوطن، وإن كان هذا الذوبان لا يعبر عن نفسه سوى في هذه الرسائل أما بعد الرسائل ، وقبلها فتصبح الذات هي الأساس.

أبدأ الصحف من بريد قرائها، وأتوقف أمام الرسائل العفوية والبسيطة والتي تخلو من الصنعة، فالصدق هو العملة الجيدة في مثل هذه الرسائل. الرسالة الأولى من مصري يعيش في أميركا، وهي عن حرف التاء، الذي يلعب دوراً خطيراً في مشاكل المصريين التي تبدأ جميعها بهذا الحرف،

مثل: تضخم، تحريك الأسعار، توظيف الأموال، تهليب الأموال، تجريف الأرض الزراعية، تصحيح الأوضاع تطرف ديني، تعصب بدون داع، وتركات، وما دمنا قد بدأنا بمصري يعيش في الخارج، فها هي رسالة أخرى من مصري عائد من الخارج يقول في رسالته:

- عدت بعد غياب طويل من الخارج، وأبحث عن فانلات صوف ماركة «جيل» مقاس ٤ نصف كم، حيث أني معتاد على هذا النوع بالذات، وليس أي نوع آخر، فكان الرد في جميع المحلات «مفيش» فهل تتكرم الشركة المنتجة بإفادتي أين أجد طلبي قبل أن أتجمد من البرد.

ومن مصر الداخل يكتب شاب:

- أنا شاب عمري الآن ١٣ سنة، تخرجت من كلية التجارة سنة ٣٨٩١. وحتى اليوم لم أعمل، لا في عمل حكومي أو في قطاع خاص، هذه هي السنة السادسة وأنا جالس هكذا، منتهى الصحة، منتهى النشاط، منتهى الحيوية، لكني جالسا هكذا مثل المحالين إلى المعاش، لا بد من الوساطة، لا بد

من مكالمة تليفونية أو كارت يحمل اسم أحد الشخصيات الهامة.

ولأنني من الطبقة الوسطى، وليست لدي واسطة فقد سدت كل الأبواب في وجهي، لقد تقاعدت قبل أن أعمل وأسأل: ماذا نفعل».

وتلك رسالة أخرى من أهالي قرية ميت نما في محافظة القليوبية. يقولون أنهم تقدموا – منذ عامين – إلى وزير الكهرباء المصري يطلب دخول الكهرباء إلى القرية: ومع هذا لم تدخل الكهرباء، وهم يسترحمون الوزير بإدخال الكهرباء رحمة بأبنائهم الطلاب، الذي ما زالوا يستعملون لمبة الجاز في عصر الكهرباء.

ويكتب مواطن سكندري من عروس البحر الأبيض المتوسط، يوماً بعد يوم، بدأت مقابر الإسكندرية تستقبل سكاناً جددًا من الأحياء، وبدأت تنتشر فيها عشش الصفيح، وكانت الإسكندرية خالية من هذه المشاكل ونرجو أن تتخلص منها.

وعن الاهتمام الذي قد يلقاه الحيوان ولا يحصل على الإنسان نقرأ:

- حضر خبير فرنسي بطائرة خاصة إلى القاهرة لنقل درفيلين من حمام سباحة أحد الفنادق لعلاجها، ويموت الإنسان جوعاً ولا تهتم به القلوب المرهفة التي تنفطر من الحزن على الحيوانات.

وهذه رسالة أخرى، يقول كاتبها:

لمناسبة عيد رأس السنة بعث إلى أصدقائي من ألمانيا هدية هي عبارة عن طرد بريد مكون من ٥ كيلو جرامات من الحلوى والبن «النسكافيه» وكانت صدمتي بالغة عندما طالبني المسؤولون في مكتب بريد طرود رمسيس بمبلغ ٣٤ جنيهًا قيمة الجمارك المستحقة، وناهيك عن سوء المعاملة الذي تعرضت له، وما يزعجني هو عدم وجود قواعد دائمة ومعلنة لمصلحة الجمارك، وبالتالي فإن مصالح الناس تترك عرضة للتقدير العشوائي من جانب الموظفين.

الطريف في الرسالة أنها موقعة من زوجة وبعد تدقيقها مكتوب أنها من طرف زوجها فلان الفلاني وعنوانه كذا،

وتلك موظفة مصرية عثرت في الطريق العام على مبلغ من المال ظهيرة اليوم الأول من هذا العام في شارع

الساحة بالقرب من محكمة عابدين «أرجو من صاحبه الحضور لتسلمه بعد أن يدلي بأوصافه، ويحضر إلى في مقر عملي».

رجل شركة يشكو:

- أقيم أنا وأسرتي في محافظة كفر الشيخ وأعمل – أمين شرطة – في مديرية أمن القاهرة، قسم المعادي، واضطر إلى السفر يومياً من كفر الشيخ إلى مقر عملي في القاهرة أناشد المسئولين في وزارة الداخلية نقلي إلى مكان قريب من منزلي.

شكوى من قانون جديد، هو قانون الإسكان، حيث تنص إحدى مواده على أن كل المساكن المؤجرة لغير غرض السكن يمكن هدمها بعد ٣٠ سنة من البناء، وذلك مقابل تعويض المستأجر، وتنفيذ هذه الفقرة سيكون له آلاف من الضحايا من مستأجري المحلات التجارية لأن التعويض المالي الذي سيحصلون عليه لن يمكنهم من شراء مكان آخر.

وتحت عنوان «عيون زمان» يكتب أحد الأطباء:

- هل نتذكر الخمسة عين التي كانت أمل كل طبيب في العصور التي ولت وهي: عزبة وعربية

وعمارة وعروسة وعيادة، لقد تذكرت أماني الزمن الجميل وأنا أشهد مؤتمر نقابة الأطباء الذي عقد مؤخرا، وكان الموضوع الذي يناقشه هو حال الأطباء في مصر الذين يعانون من شظف العيش والفقر الآن، حيث يتعرض لهذه المعاناة ٠١% من أبناء المهنة في حين أن الـ ٠٢% الكبار فقط هم الذين بدون مشاكل، أما الباقون، فيمكن القول أنهم من الفقراء الآن.

وتلك أزمة مواطن مع غسالة اشتراها يقول:

- اشتريت غسالة بمبلغ ٥٧٢١ جنيهًا مصريًا من صيدناوي فرع مصر الجديدة، وبعد الاستلام فوجئت بوجود كسر في مجموعة الدرج من الداخل، ذهبت إلى الشركة، فأفادوني بأن هذا الكسر من مسئولية الشركة الموزعة، ومن الواضح أن الأمر أصبح مسؤوليتي أنا، لم أستعمل الغسالة حتى الآن، وهكذا ضاعت فلوسي هباء.

مواطن يكتب عن الجمعيات التعاونية الاستهلاكية:

- تحولت معظم الجمعيات التعاونية إلـى محـلات للسوبر ماركت، تبيع نفس السلع التي كانت تبيعها من قبل ولكن بأسعار مختلفة، والسبب فـي رفـع الأسعار ليس لأن المنتج أصبح أكثر جودة ولكـن لأن وزارة التموين قد غيرت اسم منفذ البيع مـن مجموع استهلاكي إلى سوبر ماركت، فهـل هـذا معقول؟

وهذه رسالة من رسائل القلوب الوحيدة وسط أكثر من خمسين مليون مصري.

- أنا في العشرين من عمري، طالبة بكليـة الآداب، وحيدة أبي وأمي، والـدي طبيـب مشـهور، لا يمكنهما رفض أي طلب لي ولكن مشكلتي أننـي رغم ثرائي وجمالي فـإن الشـبان لا يحـاولون و التقرب مني طلب صداقتي ولا أنال منهم سوى المعاكسات الفجة التي لا يمكن الاستجابة لها، كما أنني أتلقى في بعض الأحيان معاكسات تليفونيـة من مجهولين يقولون ألفاظا جارحة فأغلق السماعة على الفور وأبدأ في البكاء.

وها هو من يكتب عن أموال المودعين فـي شـركات توظفي الأموال.

- نتمنى أن تفيدنا الجرائد أولاً بأول عن مصير أموال المودعين لدى شركات الأموال. بدلاً من أن تعرفنا على عدد الزوجات ونوع الطعام وعدد مرات الطلاق، من تلك الفضائح التي تعودنا أن نقرأها لأصحاب هذه الشركات، فإن المودع لا يهمه ولا يعنيه إلا موعد استرداد أمواله وكيفية استرداده لها، أما باقي التفاصيل من عدد السيارات والملابس والزوجات وغير ذلك فلا يعني أحداً.

والرسائل لا تنتهي أبداً، إنها إبداع يتجدد كل يوم، ويحول هموم الناس إلى كلمات مكتوبة بلغة سهلة وبسيطة، وتقول كل الحقيقة عن الضنى والعذاب وكل ما يتعرض لـه المواطن العادي.

لقد حان الوقت لأن أقول أن كافة هذه الرسائل إنما جئت بها وقرأتها في بريد الصحف الرسمية المصرية، أي أنها ليست من بريد صحف المعارضة، فهذا البريد لم اقترب منه بعد، حتى الآن على الأقل.

١١ فبراير ٩٨٩١م

إزالة آثار عدوان نوبل

...«إن المطلوب الآن وبشكل سريع وحاسم هو إزالة آثار العدوان النوبلي عن نجيب محفوظ».. كان هذا ما قاله كاتب سكندري شاب هو سيد القناوي، الذي لم يتمكن من لقاء نجيب محفوظ منذ حصوله على نوبل، ولكي يلقاه تحايل وحضر من الإسكندرية هو وزوجته وابنه إلى كازينو قصر النيل واختار يوم الخميس مساء، حيث يلتقي نجيب عادة مع شلة الحرافيش فقط في هذا الوقت من كل أسبوع.

ورغم أن نجيب يعلن القاصي والداني أن هذا لقاء خاص، إلا أن من يذهبون إليه كثيرون.

كنا ثلاثة، كان معي الشاعرة والكاتبة الكويتية فوزية الشويش، التي ستكون خلال السنوات القادمة واحدة من مفاجآت تجديد الإبداع الشعري العربي والخروج حتى على المجددين أنفسهم، والروائية والقاصة المصرية عائشة أبو النور، التي حولت قصصها إلى أبيات جميلة من الشعر، وكنا في مقهى قصر النيل مساء الخميس بالصدفة.

اكتشفنا أن المكان مغلق لأن التليفزيون البريطاني أجره بمقابل مالي لكي يصور لقاء محفوظ مع مجموعة

الحرافيش، هذا المساء، كاميرات وأضواء وجو فيه قدر من التوتر، جاء الحرفوش الأول حسب ترتيب الحضور: أحمد مظهر والحرفوش الثاني: توفيق صالح، المخرج الموهوب، ثم جاء نجيب محفوظ، وقبل أن يجلس اكتشف، وهو الذي كان علامة على التنظيم الدقيق والصارم أنه نسى مفتاح البيت ولم يحضره معه.

وبدلا من الجلوس طلب مني أن أوصله إلى البيت حتى يحضر مفتاحه، لأنه بعد سهرة الحرافيش يعود متأخرا ولا يحب إيقاظ أهل بيته من النوم، في الطريق إلى سيارتي أوقفنا مجموعة من شباب إحدى الدول العربية لالتقاط صورة، والصورة أصبحت أكثر من واحدة، وعلى السلم ألحت عائلة سودانية تزور مصر على التقاط صورة معه، ووقف الرجل مستسلما.

كنا نقول عنه الرجل الساعة بسبب قدرته الرهيبة على التنظيم، ومع هذا فإن نسيان مفتاح بيته لم يكن يحدث للمرة الأولى، في اليوم السابق حدث، خرج صباحا كالعادة، وخرج أهل بيته، ووقت الظهر اكتشف أنه ليس أمامه سوى قضاء النهار كله في الشارع. ذهب إلى مطعم قريب من البيت،

تناول غذاءه، مع أن النوم بعد الغذاء من أهم الأمور له، في هذا السن، ولأنه يخشى الخروج إلى الشارع حتى لا تبدأ المطاردة الرهيبة، ولذلك ظل جالسا في مكان منزوي وبعيدا عن الأنظار حتى آخر النهار.

يقول نجيب محفوظ بمرارة: كنت أتصور أنه لكل فرحة ثمنها، وأن المطلوب مني من أجل فرحة نوبل شهر من العمر يمضي من أجل الناس، ولكن ثلاثة أشهر مرت ونحن الآن في الرابع والحال يزداد سوءا يوما بعد يوم، لا قراءة، والكتابة أصبحت حلما بعيد المدى، وحتى راحة البال لم يعد لها وجود في هذه الأيام.

قلت لنفسي، أخشى أن تكون قد كسبنا نوبل وخسرنا أنفسنا وأول الخسائر هذا الرجل الذي صمد أكثر من سبعين عاما، في وجه كل المتغيرات والإغراءات الرهيبة التي تعرضت لها مصر، كان نظام حياته هو حصنه الأمين الذي تكسرت عليه كل الأعاصير والمفاجآت.

منذ أن بدأ هذا الرجل في الكتابة في أواخر العشرينيات من هذا القرن، وحتى الثالث عشر من تشرين «أكتوبر» الماضي، وهو ثابت في مواجهة كافة المتغيرات،

ثباته يوحي بثبات اليل والأهرامات وأبو الهول، وإن كان هذا الثلاثي قد تحدى الأبدية نفسها، فإن ثبات نجيب محفوظ قد صمد في وجه كل ماجرى في مصر منذ زمن الملك فؤاد الأول، ملك مصر والسودان، وحتى أيام حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية، مرورا بكافة المتغيرات التي طرأت على روح وضمير ووجدان مصر.

ولكن هذا النظام مهدد بالتناثر أمام طوفان نوبل الذي جاء، وعندما جاءت له إحدى الصحف تطلب منه إجراء حوار معه على مدى مائة ساعة، فتساءل الرجل: ولماذا هذا الرقم بالذات؟! ويبدو أن طوفان نوبل ما زال يحمل في طياته العديد من المفاجآت.

على أن ما جرى لنجيب محفوظ قد يكون أقل الخسائر الممكنة، ذلك أن ما يجرى وما قد يحدث للأدب العربي ولأدباء العرب الكبار الآن في المستقبل، هو الخسارة التي لا بد وأن نحاول تجنبها، أو على الأقل أن نخرج منها بأقل الخسائر الممكنة.

نوبل محفوظ جاءت في وقت تكاد أن تكتمل فيه كل ملامح محاولة جادة وجريئة للخروج من المشروع التقليدي

في الكتابة الروائية العربية، وهي المحاولة التي بدأت بعد زلزال ٧٦٩١وحتى الآن، فعلا هناك جهد خارق للخروج من تحت عباءة المشروع الكلاسيكي في الكتابة الروائية العربية كلها، وأخشى ما أخشاه أن تشكل نوبل هذه انتكاسة لهذا المشروع كله، لدي حالة من الرعب أن نفكر جميعا بأسلوب، ما دامت هذه الطريقة قد جاءت بنوبل، فلا بد من الكتابة بنفس الطريقة، حتى تكون هناك نوبل ثانية وثالثة ورابعة في الزمن القادم، وأي كتابة تبدأ وفق شروط تأتي من خارج العملية الإبداعية نفسها، تبدو مثل عمليات الإجهاض.

كانت لنا جميعا تحفظات سياسية سابقة على نوبل وجائزته، ولكن ما أن جاءت لنا، حتى عقدنا معها صلحا، كل واحد جعله صلحه المنفرد معها، وحولناها إلى أول كلمة في الكون وآخر مفردات قواميسنا جميعا، وكان هذا التحول مأساويا بالنسبة لنا جميعا وهو لصالح نوبل ولكن ضد كل المبدعين العرب ولا أستثنى منهم أحدا، بما في ذلك كاتب هذه السطور نفسه.

جاءت نوبل إلى مصر بعد أن أصبحت مصر غربية، أو هكذا يحاولون لها، وأخشى أن نتحول جميعا إلى سكان

للجنوب لا يفعلون سوى اللهاث وراء سكان الشمال الذين يملكون حق المنع والمنع معا، لدي رعب أن نصبح هنود القرن العشرين الحمر، وأن يعود الأوربي هو رجل القرن الماضي الأبيض، الذي يحمل معه كل رموز الخلاص وأن نغرق جميعا في رحلة البحث عن الخلاص لديه.

كل من نقابله الآن يحدثك لتكتشف في حديثه كلمة اسمها العالمية.. احتلت هذه الكلمة مساحات الإعلام العربي الآن، قبل أن يكتب أي مبدع عربي يفكر في الترجمة وقبل أن يعايش همه الخاص ويحمل هم بلاده العام على كتفيه، يبدأ في تخيل استقبال قراء أوربا لما يكتبه من أعمال، عين على الورق والعين الأخرى هناك.. حيث شهادة الاعتراف الحقيقية بأي كاتب.

والمبدع العربي معذور لأنه حتى في حالة نجيب محفوظ فقد بدت نوبل وكأنها إعادة اكتشاف له من جديد، بل تحولت في بعض الأحيان إلى شهادة ميلاد له، وقد ذهلت عندما وجدت أن جمهرة المثقفين العرب، والمصريين منهم، بدأوا في إعادة قراءة انتاجه الأدبي بعد نوبل، وأنهم بدأوا في التعامل معه وكأنهم لم يقرأونه من قبل، وحتى مساحة

الخلاف القديمة مع تجربته الإبداعية تقلصت وجاءت مكانها حالة من الإعجاب الأبلة واللهاث المجنون وراء نتاجه الأدبي، وتلك حالة مشروعة أن نجيب محفوظ جاء إلينا عبر الاكتشاف الأوربي، وليس من خلال اكتشافنا نحن له هنا، وهذا لم يحدث مع محفوظ وحده، ولكن الأسماء الجديدة والجيدة في عالمنا الثالث سواء في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فنحن نعرفها من خلال لندن وباريس وليس من خلال عواصم هؤلاء الكتاب.

المحزن والمؤسف في الأمر أنه منذ بدايات هذا القرن، مع حركات التحرر الوطني من الاستعمار القديم، كانت هناك محاولة للنهوض، أن التابع القديم كان ينهض وكان يبحث عن لسانه الخاص ولغته الخاصة، ورؤاه المغايرة، وفنه المغاير، ولكن ها نحن على مشارف نهايات القرن، يحن التابع الذي نهض والذي وقف على قدميه إلى العودة إلى بداية القصة من أولها، يحن بجنون إلى التبعية مرة أخرى، وإن كانت تبعية القرن الماضي مفروضة علينا من الخارج، وبقوة السلاح وفي الميادين العسكرية والاقتصادية والسياسية، فإن التبعية القادمة إنما تتم بطلب منا، وهي تأتي في أخطر

الميادين كلها حيث العقل والكتابة وتجليات الإبداع، وذلك هو مكمن الخطورة.

الأدباء العرب للكبار قصة أخرى، البعض وقف ضد حصول نجيب محفوظ على الجائزة، ولكن من منطلق انه أحق بها منه، أي أن الموقف ضد نجيب محفوظ ليس ضد الجائزة، مع أن الرجل قال لي أنه من حق كل كاتب عربي أن يقول رأيه في الجائزة، ولكن لماذا أكون أنا كشخص وكنتاج أدبي هدف الكتابة والكلام؟

كل أديب كبير لديه قصة كاملة، تقول فصولها أنه كان المرشح الوحيد لنوبل، ولديه تفاصيل كثيرة، يقولها لتؤكد صدق ما يقوله وما يحكيه، ولديه أيضا سبب هام وجوهرى لاستبعاده في اللحظة الأخيرة، وكل مبدع عربي كبير يؤكد على أمرين في هذه القصة المكررة والمعادة.. أولهما : أنه كان المرشح الوحيد للجائزة، وثانيهما أن نجيب محفوظ نفسه لم يكن مرشحا لها أبدا، وأنه داخل على الخط في اللحظة ما بعد الأخيرة، في ساعة الجائزة الخامسة والعشرين، وهكذا تناثرت العلاقات القديمة، وحلت محلها جراح ما كان لها أي مبرر على الإطلاق، ستحتاج هذه الجراح إلى سنوات أخرى

قادمة حتى تندمل، وقد جاءت هذه الجراح في فترة من أحلك فترات الشعور العربي العام بالانتماء والارتباط والمشاركة.

يبدو أنه لم يكن هناك مفر من دخول جماهير القراء ساحة اللعبة، وهذه الجماهير التي أحبت نجيب محفوظ، وعرفت رواياته من السينما والتليفزيون والمسرح، وفرحت بدون حدود بالجائزة باعتبارها انتصارًا جاء في أزمنة الانكسار العربية الرهيبة، هذه الجماهير بدأت – ولأول مرة – تقرأ نجيب محفوظ، وإن كانت البداية هي الأعجب ولكن في ظل تيار سلفي قوي، فإن عملية القراءة قد تحولت بقدرة قادر إلى محاولة للبحث عن أسباب أخرى لمنح الجائزة لهذا الرجل، السلفيون في مصر يكتبون ويقولون في الليل والنهار أن الغرب الصليبي أعطى نوبل لكاتب يعادي الإسلام، وأصبح هناك موقف من أدبه يرفضه حتى دون قراءته، أو الاقتراب منه، وتلك – في حد ذاتها – جبهة أخرى جديدة كانت مغلقة من قبل، ولكنها فتحت مؤخرا.

هذه ثالث مرة أكتب في هذا المكان عن نوبل نجيب محفوظ، أكتب هذه المرة، بعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون في الأمثال الشعبية، وأنا أكتب هذه المرة

احذر نفسي والآخرين من الإصابة بهذا المرض الفتاك الذي أسمه «أعراض نوبل» .. قبل أن يأخذنا الطوفان جميعا ولا يبقى لنا من نوبل في النهاية سوى خسائرها بعد أن فشلنا في الحصول على مكسب واحد منها.

بعد هزيمة ٧٦ المدوية رفع عبد الناصر العظيم في مصر والأمة العربية شعاره الوطني «إزالة آثار العدوان» وهو الشعار الذي ما زال صالحا حتى هذه اللحظة، باعتبار أن العدوان الغربي والأمريكي والصهيوني ما زال مستمر حتى هذه اللحظة، وهدفه الجوهري الحلم العربي المشروع، والآن لا بد من استعادة شعار عبد الناصر العظيم ولكن من أجل إزالة آثار عدوان نوبل على الأدب العربي، أكتب هذا الكلام الذي يحمل في طياته العديد من المتاعب، قبل أن يفوت الوقت.. وتبدأ كل الجمل العربية بكلمة «يا ريت» كلمة «يا ريت» أو «ليتنا» قد ثبت لنا جميعا أنها لم تعمر بيتا واحدا من بيوتنا العربية المهدمة، والتى ما زالت تعانى من آثار العدوان عليها، هذا العدوان الذي استمر مع تراجع شعار – مجرد شعار – إزالة آثاره، حتى لو كانت هذه الإزالة في نفوسنا فقط، وذلك هو أضعف الإيمان.

اللهم إني قد بلغت، وكتبت وقلت

اللهم فاشهد...

٨١ فبراير ٩٨٩١

الحزن المقيم

للضحك في حياة الفلاح المصري طقوس خاصة، مـا أن يضحك حتى يتوقف في منتصف الضحكة، ثـم يمسـح وجهه بيديه وينظر إلى السماء قائلا: اللهم أجعله خيرا.. في طفولتي البعيدة، سألت والدي عن السر في ذلك.. فقال لـي: إن الفلاح عندما يفرح، يتوقع الحزن بعد الفرح، ولذلك فهـو يطلب الخير، خوفا من الأحزان القادمة.

في طفولتي كنت أرى الحزن صـديقا دائمـا للنـاس والفرح غريبا عابراً، الحزن هو القاعدة، والفرح اسـتثناء لا يتوقف طويلا من الوقت.

علمتني حياة القرية المصرية أن الدنيا عندما تعطـي باليمين فلا بد وأن تأخذ بالشمال ، وعلى الرغم من كل مـا تعلمناه، وكل عشقنا للعلم، فإن هذا الميراث القـديم يشـكل المناطق الخضراء في حبات قلوبنا.

منذ زمن القرية وأنا أعيش نفس هـذه الحالـة مـن التوجس، ما أن تقبل الدنيا حتى أنتظر الأدبار، ما أن تـأتي حتى أتوقع ما بعد هذا على الفور، لدرجة أن الأمرين معـا صارا متلازمين معي بصورة غريبة..

هذا الأسبوع صدر الجزء الأول من أعمالي الكاملة وهو عبارة عن ثلاثية: «شكاوي المصري الفصيح» الجزء الأول منها عنوانه: نوم الأغنياء، والثاني المزاد، والثالث أرق الفقراء، والرواية عن مؤلف مأزوم، يقف بين الرئيس الذي باع الوطن كله في مزاد علني وبين الناس نفسها، التي عرضت للبيع.

الرواية عن الوضع المصري الرهيب الذي اسمه: سكان القبور، في تلك الأيام الفاصلة من حياة الأمة العربية عندما قرر أنور السادات أن يسافر إلى القدس.

وعندما صدرت الأجزاء الثلاثة في السنوات الثماني الماضية، إنما صدرت عن أكثر من دار، وفي أكثر من دولة عربية، وكان حظها بالغ السوء، إذا صدر الجزء الأول منها عشية إجراءات سبتمبر التى سبقت اغتيال السادات مباشرة، فتاه العمل تماما.. في ظلال هذا الحدث العام.

وعندما دعانا الصديق – أنا وجمال الغيطاني – إبراهيم المعلم، صاحب دار الشروق، إلى وليمة فاخرة وعرض علينا معا، بشكل قريب من المفاجأة أن يصدر لنا

أعمالنا الكاملة، فوجئت في البداية لدرجة أنني طلبت مهلة ، من أجل التفكير.

كنت أخشى من العرض، لأنني – وكذلك جمال – لـم نقل كل ما لدينا، ما زال أمامنا متسع من الوقت وربما كـان ما قدمناه حتى الآن مدخلا إلى عالم كل منـا الروائـى، إن الأعمال الكاملة، من المفروض ألا تصدر إلا بعد أن يصمت الكاتب تماما، ويكون لديه يقين بهذا الصمت، أو أن يرحـل عن عالمنا، أي أن الأعمال الكاملة تصـدر عنـدما يكـون الكاتب قد قال الكلمة الأخيرة.

على الجانب الآخر، كانت هنـاك إغـراءات كثيـرة فأعمالي وكذلك أعمال رفيق رحلتي وشقيق دربي، متنـاثرة، صدرت في حالة من الشتات المحزن.

عمل هنا، وآخر هناك، وبعض هذه الأعمال نفذت ولم يعد لها وجود أبدا، والبعض الثالث صـدر خـارج مصـر وهكذا.

ثم إن أبناء جيلنا من الشعراء يبدون أكثر حظا منا، ما أن يصدر الشاعر أربعة دواوين أو خمسة حتى نجد مجلـدا

ضخما أنيقا عليه صورة مبتسمة له، وفوق الصورة اسمه وتحتها عبارة: الأعمال الكاملة.. فلم لا نفعل هذا؟!!

كان في الموضوع قدر من المغامرة، ولكننا قبلنا معا – أنا وجمال – وبعد أشهر من توقيع العقد، جاء من بيروت مجلة فخم وأنيق، يقع في أكثر من ألف صفحة عبارة عن ثلاثيتي: شكاوي المصري الفصيح، لها جلد جميل وغلاف فني رائع صممه عبقري الأغلفة في المكتبة العربية: حلمي التوني، وفي نفس الوقت كان الجزء الأول من أعمال جمال الغيطاني هو رائعته الفريدة: كتاب التجليات.

ولأن إبراهيم المعلم ليس تاجرا ولكنه ناشر يحب عمله ويعشق الكتاب، ويعتبر أن الكتاب الجديد عزيز عليه مثل ابنه تماما، ما أن وصلت النسخة الأولى من المجلد، حتى سارع يبحث عنى في أرجاء القاهرة، إلى أن وجدني مع الشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي حيث أعطاني النسخة.

الفرح غريب على، واللحظات التي سعدت فيها نادرة الحدوث، ولكن سعادتي في هذه الليلة كان من الصعب وصفها فيها. هي لحظة تقول إن عرق العمر لم يذهب هباء،

وأنه لن يصح سوى الصحيح، وأننا قد نظلم بعض الوقت، لكن الإنصاف في انتظار من يعمل، مهما تأخر عنه.

ومن كثرة الفرح الطارئ نسيت أن أتوقف لكي أقول: اللهم أجعله خيرا.. تذكرت هذا في اليوم التالي عندما جاء إلى مصر من فلسطين المحتلة، الصديق، الناقد الأدبي نبيه القاسم وهو ابن شاعر السجن الفلسطيني سميح القاسم، كان يحمل معه روايتي: «الحرب في بر مصر» مترجمة إلى العبرية/ وقد صدرت عن دار «مفراس» للنشر في تل أبيب.

كانت هذه اللحظة هي أول علاقة لي بالأمر، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، ولكنه قال لي، أن نفس الدار تترجم الآن روايتي: «يحدث في مصر الآن» إلى العبرية، لكي تنشرها بنفس الطريقة، تذكرت على الفور الليلة السابقة، وتذكرت أنني نسيت ترديد الجملة التي يرددونها في قريتي البعيدة اللهم أجعله خيرا.

كانت أمي تقول دائما: آه من الدنيا إن أقبلت، إنها في أدبارها تأخذ معها أكثر مما جاءت به، وها هو العدو الإسرائيلي يحاول أن يغتصب التطبيع، في ميدان الثقافة، لم يكفه اغتصاب الأرض ومحاولة اغتصاب العرض،

واغتصاب الهواء العربي، الذي أصبح معفر بـالهوان، ولأن هذا العدو يدرك ويعرف جيدا، أن الثقافة هي السلاح الأخير الباقي لأمة العرب، فقد قرر الدخول عليها.

ما حدث معي لم يكن الحادث الأول، ولن يكون الأخير أبدا، عمليات سطو منظمة تتم على أدبنـا، والهـدف مـن الترجمة ليس التعريف بأدبنا ولا تقديمه للعالم، ولكن فقط أخذ هذا الأدب كعينة من أجل معرفتنا، فإسرائيل تعرف جيدا أن كل عربي صميم هو بالنسبة لهـا خصـم سياسـي وعـدو حضاري، على الرغم من كافة مظاهر السلام.

وعندما أرادت «الأهالي» صوت كل المواطنين فـي مصر، وصحيفة اليسار المصري أن تقف معي، كتبـت أن العدو الإسرائيلي ترجم روايتي دون إذن مني، وقد حزنـت في نفسي من هذه الصياغة، لأنني أرفض أي تعامل مع هذا العدو – مهما كانت الظروف والمبررات – وحتى لو قامـت دولة فلسطين العربية وتعامل كل العرب وكل الفلسطينيين مع هذا العدو، وحتى لو وجدت نفسي أنني الرافض الوحيد لـه، فسأظل الرافض الوحيد إلى الأبد.

لقد رجانى سميح القاسم وإميل حبيبي ألا أحول الأمر إلى مشكلة وقد نظرت إلى هذا الرجاء في سياق موقفهما في الداخل، الذي يختلف تماما عن الموقف في مصر، بعد جرح كامب ديفيد.

ففي مصر لا بد من التنديد بهذا الموقف الإسرائيلي الذي يتساوى في نظري مع احتلال الجنوب اللبناني وضرب الانتفاضة ونسف المفاعل النووي العراقي ونهب خيرات – سيناء ومحاولات تهويد الضفة وقطاع غزة.

في نفس الأسبوع أبلغني صديق أن إذاعة اسرائيل العربية أذاعت أنني عينت مراسلا لمجلة «٨٤» في القاهرة، وهي مجلة فلسطينية يصدرها اتحاد الكتاب العرب في فلسطين المحتلة ويرأس تحريرها سميح القاسم.

وعلى الرغم من أن التعامل مع الفلسطينيين في الداخل شرف وطني قبل أي اعتبار آخر، إلا أن الجميع يعرف، أنني قد أقطع يدي قبل أن تخط على أي خطاب اسم الدولة العبرية، وأن يبتر لساني، قبل أن يرفع سماعة التليفون ويطالب رقما مسبوقا بالرقم الدولي، لعاصمة الدولة العبرية.

بعدها بأيام جاءني صديق من الأردن، وقال لي أن مراسلة الإذاعة العبرية الإسرائيلية في القاهرة، قال في رسالة لها من القاهرة أنني أبلغتها استعدادي للسفر إلى الدولة العبرية وزيارتها شريطة أن يتم ذلك في سرية تامة، وأن هذا نفسه هو موقف بعض الأصدقاء من الذين لهم موقف ضد زيارة إسرائيل.

قلت لنفسي: ليس بعد الوقاحة ما يمكن أن يقال، يبدو أن العدو الإسرائيلي يريد أن يواجه الموقف المصري الرافض لإقامة أي علاقة معه، بكل هذه الشائعات التي تقدم، هذه المرة – عبر أشكال رسمية، فتخرج بالتالي من حدود الشائعة التقليدية، إلى حدود الشائعة التي لها مصدر رسمي.

من اللحظة الأولى، كنت أدرك أنني لست في حاجة إلى نفي كل هذا الهراء الفارغ، فموقفي من العدو الإسرائيلي لا يحتاج إلى إيضاح في أي وقت من الأوقات، فهو من الثوابت الأساسية في وجداني وضميري وروحي، ومهما كانت المتغيرات، فالثابت لدي إزاء هذا العدو لن يتغير أبدا.

كتبت هذه الكلمات لأنني اكتشفت أن هذا العدو يحاول أن يغتال حتى الأفراح الصغيرة التي تمر بحياة كل منا، لأن

هذه الأفراح البسيطة والمشروعة تقف ضد مشروعه الأساسي في تدمير كل أشكال الفرح العربي، حتى لو كان هذا الفرح زائراً غريباً، لإنسان عربي بسيط.

منذ أن كتبت الكلمة الأولى، وحتى كلمة الختام وفي الذهن يدور خاطر محدد، على شكل سؤال يقول: هل من حقي أن أشغل القارئ بهذا الهم الخاص بي؟! أليس في ذلك عدوان على حق القارئ؟! ولكني اكتشفت أن ما كتبت عنه هم خاص، نعم، ولكنه هم عام لأنه يتصل بمواجهة عدو لا بد من مواجهته في كل لحظات الصحو والنوم، وإن كانت هذه المواجهة لا بد وأن تبدأ منا كأفراد، فلا بد وأن تمتد لكي تشمل المجموع العربي كله، أيضاً فإن هذا الذي يحدث معي، إنما يتم مع كثير من المبدعين العرب، خاصة أصحاب المواقف ضد العدو، فكما أنني لم أكن الأول، فمن المؤكد أنني لن أكون الأخير.

علينا أن ندرك جيدا، أن العدو الإسرائيلي يحاول الآن أن يدير ظهره لمن أرتموا على أبوابه، وأن يحاول جاهدا اختراق صفوف من رفضوه، وتلك هي معركتنا القادمة مع

هذا العدو، الذي أثبت أنه عدو الماضي والحاضر والمستقبل معا..

وتلك هي مهمتنا الأولى والخيرة في الزمن القادم..

٥٢ فبراير ٩٨٩١

قصص تبحث عن مؤلف

تستهوينى قصص الحياة الواقعية، تصل دهشتي إلـى مداها عندما أجد نفسي في مواجهة إبداع يومي لا مؤلف له، يؤلفه في بعض الأحيان أبطال هذه القصص أنفسهم عن

أنفسهم. أتوقف أمام حدث ما أحيانا، لا أستطيع انتزاع نفسي منه بسهولة، ذلك أنه مثلما يقال ليس كل ما يلمع ذهباً، يمكن القول أيضا وبالمنطق نفسه ليس كل ما يجرى أمام أعيننا يصلح لأن يكون قصصا، ومع هذا يلتصق بعض هذه

القصص بالنفس ولا يمكن الخروج منها بعد ذلك أبدا.

أحاول الخروج من قصص الحياة التي تحمل كل إغراءات الحياة اليومية الواقعية ، أصاب بالدهشة من المؤلفين الذين يعيشون لحظات غسقية من حياتهم، يشكون لي من أنهم لا يجدون القصص التي يكتبونها، وأن الواقع قد أصابه الجفاف.

أعرف أن المسألة لا تسير في خط مستقيم بين حادث الواقع الذي يصلح لأن يكون قصة تبحث عن مؤلف، وبين المؤلف الذي يشكو من ندرة القصص، وإن تلك قضية وهذه

قضية أخرى تماما، ولكن توقفي أمام حادثين وقعا في أرض الواقع آثارا القضيتين في نفسي.

إنهما حادثان مما يجرى في أرض الواقع كل يوم، كل منهما يصلح لأن يكون قصصا قصيرة ، وهما معا في انتظار المؤلف.

الحادث الأول جرى في فلسطين المحتلة، وبالتحديد في أحد مستشفياتها.

كان هناك شخص إسرائيلي تعدى الأربعين من العمر وكان مريضا بالقلب ورأي الأطباء بأنه سيموت خلال يومين إذا لم تتم عملية نقل قلب له، وكان لابد من قلب وهذا القلب المطلوب يؤخذ عادة من شخص مات لتوه حيث ينقل القلب الميت إلى الشخص الذي يحتاج إلى قلب.

وعلم الأطباء أن في المستشفى نفسه شاباً فلسطينيًا في الثامنة عشرة من عمره، أطلق عليه جنود الاحتلال الإسرائيلي رصاصة في الرأس وفشلت كل أشكال العلاج وجلس الأطباء ينتظرون وفاته وحدود لذلك أربعًا وعشرين ساعة لا بد وأن يموت خلالها.

وما أن عرف أهل الرجل الإسرئيلي بذلك حتى وجدوا أن حالة الفلسطيني مثالية تماما لنقل قلب فلسطيني إلى الإسرائيلي.

وكان التساؤل: هل يقبل الشاب العربي ذلك؟ بتحديد أكثر، وهل يقبل أهل الشاب العربي نقل قلبه إلى الإسرائيلي؟ كان من المؤكد أن الرجلين سيموتان.

تساءل الإسرائيليون: لماذا لا يموت واحد ويعيش الآخر؟ما دام الموت مؤكدا بالنسبة للاثنين وما دامت هناك النية لإنقاذ أحدهما فقط؟

كان هناك حرج لا مزيد عليه في مفاتحة أهل الشاب العربي في القضية، والأطباء لن يقوموا بهذا الدور وأهل الإسرائيلي رفضوا أن يفاتحوا أهل العربي في هذه القصة، إلا أن زوجة الإسرائيلي قررت أن تتوجه إلى الأسرة العربية وتطلب منها قلب ابنها الذي سيموت لا محالة خلال يوم واحد لا أكثر.

في أوساط الأسرة العربية كان هناك رأيان: رأي يرى أن إهداء القلب إلى هذا المريض الإسرائيلي من شأنه أن

يحدث أثرا نفسيا طيبا بين اليهود ويلين موقفهم ويشعرهم بإنسانية الفلسطينيين والعرب، وأنه لا مانع من ذلك.

ولكن الرأى الآخر رأي في الطلب الإسرائيلي وقاحة وأنه يفوق حتى طاقة البشر على التسامح وقدرتها على الاحتمال، فكيف يقدم قلب شاب فلسطيني قتله جنود الاحتلال الإسرائيلي هدية لكي ينقذ حياة إسرائيلي يمد في عمر الدولة الإسرائيلية ويبعد إمكانية الحل القادم؟

انتصر الرأي الآخر ومات الاثنان في وقت واحد معاً، الإسرائيلي الذي الم يجد قلبا ينقذ حياته والفلسطيني البطل الذي قتله جنود الاحتلال الإسرائيلي برصاصة في مؤخرة الرأس وفشل الأطباء الإسرائيليون في إنقاذه، مات الأول في الأربعين من العمر ومات الثاني في الثامنة عشر من عمره.

الحادث الثاني من مصر.

عندما وجد صبي ميكانيكي حقيبة بها مبلغ كبير من المال في السيارة، أخذ المبلغ الضخم وأخفاه، مرت أيام ولم يبلغ صاحب السيارة التي كان بها المبلغ عنه، فقال الصبي الميكانيكي في نفسه لا بد وأن صاحب السيارة كان قد سرق المبلغ ولذلك خشى أن يبلغ عنه، كان الصبي الميكانيكي يحب

امرأة متزوجة فأخذ المال وذهب إليها، سافر مع الزوجة التي يحبها لحد الجنون وزوجها وأولادها من زوجها إلى مصيف رأس البر، وهو مصيف من مصايف الطبقة الوسطي في مصر، وفي المصيف عرض عليه الزوج بأن يبيع له زوجته لقاء ثمانية آلاف جنيه، دفع الشاب المبلغ على الفور وأطلق الرجل زوجته وجلس الشاب ينتظر مرور فترة العدو حتى يكتب كتابه عليها ويحقق حلمه الذي لم يكن يجرؤ على أن يحلم به قبل أن يجد المال.

عاد الزوج السابق ومعه أولاده من زوجته إلى القاهرة وترك زوجته مع صديقها في المصيف، وفي القاهرة طرأت له فكرة: لماذا لا يبيع الأطفال الثلاثة لهذا الذي يحب زوجته واشتراها منه؟

عاد الزوج مرة أخرى إلى المصيف حيث توجد زوجته السابقة التي أصبحت مطلقته الآن مع الصبي الذي وقع غرامها وعرض عليهما أن يشتريا منه أطفال هذه المرأة الثلاثة، ووافق الشاب من أجل عيون حبيبته التي اشتراها قبل أن يشتري أيضا أبناءها، وهكذا دفع ألفي جنيه أخرى وأصبح ثمن الأم وأولادها عشرة آلاف جنيه، وتمت الصفقة،

حصل الصبي الغض الطري المراهق على امرأة يحبها وأبنائها الثلاثة لقاء مبلغ من المال، أما زوجها السابق وأب الأولاد الثلاثة فقد حصل على عشرة آلاف جنيه وضعها في جيبه وسافر إلى القاهرة.

وعلى الرغم من أن القصة تسربت إلى الصحف المصرين ونشرت بشكل موسع، إلا أن صاحب الأموال الضائعة لم يتقدم إلى الدولة ليقول أن الأموال أمواله مما يؤكد الظن أنه سرقها، وإلا كان قد تحرك من أجل هذه الأموال.

الحادث الأول نشرته صحف العدو الصهيوني ولخصه بخفة قلم، يحسد عليه، هو قلم أحمد بهاء الدين في عموده اليومي الذي يلخص كل صباح الضمير بكل دقة، والعامود عنوانه «يوميات».

والقصة الثانية أحاول الهروب منها سنة وأكثر، تطاردني في كل لحظة حيث أقف أمام بشاعتها ولا إنسانيتها، قصة رجل باع زوجته ثم عاد يبيع أولاده. قصة الفتى المراهق الذي قرر أن يشتري الحب بمبلغ من المال، قصة صاحب حقيبة المال الذي ضاعت منه ولم يبلغ عنها.. أحاول

ويبدو أن محاولاتي ستفشل وإنني سأجلس ذات يوم لأكتب قصة لصوص مصر.

حدثان يؤكدان من جديد أن الواقع الحي أصدق أنباء من الكتب.

والحادثان لا ينقصهما سوى المؤلف ليتحولا إلى قصتين مؤثرتين في زمن نعاني فيه من خطر التكرار الممل لكل ما في الحياة من بهجة ولكل ما فيها أيضا من أحزان.

المهاجرون

لكل زمان آيته. وآية هذا الزمان المصري العصيب هي الهجرة.

لقد أصبح المصريون – ولأول مرة في تاريخهم – شعبا من المهاجرين.

والمصري معروف بالارتباط بالأرض، وعندما ينتقل من قرية إلى أخرى، يصبح الأمر حكاية تتطلب استعدادات نفسية هائلة، فما بالك بالسفر من دولة إلى أخرى.

وابن مصر هو الذي اخترع الاستقرار في مكان واحد والبناء فيه والزراعة والصناعة وكل ما له صلة بالعمران.

كانت هناك استثناءات لذلك، أعرف أنه حدثت بعض الهجرات في تاريخ مصر، ولكنها كانت مرتبطة بظرف معين وكانت تقوم بها فئة أو جماعة من المصريين، ولعل آخر هذه الهجرات، ما جرى في مصر بعد الاحتلال البريطاني في الثلث الأخير من القرن الماضي.

الذين هاجروا هذه المرة كانوا المثقفين، إما بقرارات النفي من المحتل الأجنبي، وإما بقرارات خاصة منهم، هروبا من هذا الواقع الجديد الذي فرض نفسه على مصر.

لكن عقد السبعينات جاء إلى مصر ومعه نوعان من الهجرة، هجرة أولى من الريف إلى المدن، وفي المدينة لا يحقق أحد ذاته ولا يشبع من يومه ولا يصل إلى ما يريد الوصول إليه، فيقرر الهجرة من الهجرة نفسها، أي يشد الرحال من المدينة إلى بلاد البترول.

في بداية السبعينات رحل عن مصر بعض المثقفين الذين اختلفوا مع الطريقة التي كانت تحل بها قضايا الوطن، وتصور البعض يومها أنه ترف يمارسه المثقفون. لأن مصر كانت لا تزال متمسكة حتى بالأمثلة الشعبية التي ترفض الترحال والسفر والهجرة.

لكن الطوفان جاء، وطفش وهج حتى الفلاح الذي يبدو في بعض الأحيان وكأنه مزروع في الأرض مثل النباتات والأشجار، جذوره في الأرض وقامته في عنان السماء.

أصبحت الهجرة أنواعا وأشكالا وألوانا. الحاصلون على شهادات عليا وأكثر، حتى الدكتوراه، أمامهم أميركا وكندا واستراليا وأوروبا الغربية، مع أن الحاصل على شهادة جامعية في مصر يكلف الدولة أكثر من عشرين ألف دولار.

والشباب يتجهون إلى الدول العربية، والفلاح والعامل يجرى وراء رزقه في بلاد الأشقاء العرب.

كنت وما زلت أذهب إلى قريتي فيكبش الهم في قلبي، لا أجد في الحقول سوى الأطفال والنساء والرجال العواجيز والمرضى، أما الفلاح التقليدي، الرجل الذي كان طولا بعرض، الذي تفوح منه رائحة الصحة والعافية والفتوة والرغبة في العمل، فلم يعد له وجود، أمسك في قلبه مرض السفر والترحال، في جيبه جواز سفره، وفي يده الدولارات، وعندما يسألك، فإن سؤاله لا يكون أبدا عن مواعيد مياه الري، أو حال الأرض والزراعة، ولكن عن سعر الدولار في السوق السوداء ومواعيد الطائرات من أجل السفر إلى الدول العربية.

يسافر الفلاح، فيترك مكانه خاليا ويعود من الدولة العربية معه الأموال، ويكون أول ما يقوم به هو الزواج من زوجة أخرى، غير زوجته القديمة، ويبني بيتا جديدا، على الرغم من وجود بيت قديم له، والبيت الجديد يبني على الأرض الزراعية، أي أنه يأكل أرضه بدلا من أن يزرعها

ومن هنا تنشأ أزمة حقيقية من أزمات مصر الاقتصادية الآن.

ثم يجلس في المقهى، ينفق ما معه من المال الذي عاد به من الدول العربية، يلعب الورق. يعاقر القمار، حتى تنتهي أمواله، فيسافر من جديد وهكذا.

في المدن تختلف الصورة تماما، أمشي في المدن فأشاهد امرأة تسحب أطفالها، تلف وتدور في الشوارع امرأة وأطفال بدور رجل. إذن زوجها مسافر في الدول العربية، وكل امرأة دون رجل في نظر الآخرين هي امرأة سهلة ومتاحة للجميع، تتعرض للمضايقات والمعاكسات التي تصل في بعض الأحيان إلى حدود الخطف والاغتصاب. وعندما تعود إلى البيت يكون عليها أن تلعب دور الأب والأم للأسرة في الوقت نفسه.

أطفال بدون أب، ينشأون فيجدون أن الأم هي الأم والأب معا، ونساء بدون رجال، وعائلات نسائية مائة في المائة، وهذا الوضع سنجد أثره في انتظارنا في السنوات المقبلة، والسبب الوحيد في هذا هو الهجرة من مصر إلى الدول العربية بحثا عن الرزق.

هكذا أصبح المصريون شعبا من المهاجرين – لأول مرة – الكل يهاجر، والجميع يسافر، من قبل سمعنا من يقول سافر ففي السفر سبع فوائد، والرحلة والسفر لهما مكان فريد في التراث العربي القديم، وفي تاريخنا رحالة حفروا أماكن لهم في وجدان الأمة العربية والعالم.

وفي طفولتنا كان نموذج بن بطوطة يلهب خيالنا.. المحموم، نتصوره إنسانا خارقا، يحضر ولادة الشمس في الشمس في الشرق ويدفنها في الغرب.

ولكن عندما جاءنا مرض الترحال اتضح لنا جميعا أن هذه الهجرة بعثرت في الهواء كل الاستقرار الذي هو سر أسرار مصر كلها، ويبدو أن الأسرة المصرية – بكل تماسكها القديم – هي المرشحة لأن تدفع ثمن كل هذه السفريات التي تتم في الليل وفي النهار.

يقول الفلاحون المصريون في الريف أن الغربة هي نوع من أنواع المذلة والمهانة، وكانت هذه الكلمات من ثوابت الحياة المصرية، ولكن عندما فتح السادات أبواب مصر على مصراعيها، وألغى كل الإجراءات التي تحد من

السفر، عندما حدث هذا، أصبح جواز السفر هو سيد

الموقف. إن الشباب المصري يكمل تعليمه الآن ويذهب إلى القوات المسلحة حتى يتمكن من السفر إلى الخارج، إن حلم السفر إلى الخارج هو سيد الأحلام كلها في أذهان المصريين، وأكثر الكتب مبيعا وتوزيعا في مصر الآن، هي تلك الكتب التي تتحدث عن السفر إلى الخارج وتشرح

إجراءات السفر وكيفية التغلب على العقبات في هذه الرحلة.

لقد جاء زمان الهجرة وأصبح المهاجرون هم أبطال العصر ويا ويلنا من زمن الهجرة.

١١ مارس ٢٩٩١

اكتشاف مصر

هذا كتاب طريف، أخذته من مكتب الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب المصرية، قبل أن يصدر، وعدت إلى بيتي، فكان لا بد وأن أنحي الكتب التي كانت تحت القراءة، وهكذا نحيت جانبا: «قشتمر» لنجيب محفوظ و«أطفال منتصف الليل» لسلمان رشدي «وفاتحة لنهايات القرن» لأدونيس، كانت التنحية لبعض الوقت فقط.

والكتاب له مؤلف مصري ومكتشف انكليزي، ولذلك صدر أولا بالانكليزية في لندن وأخيرا ترجم إلى العربية لكي يصدر في القاهرة، وهكذا نعرف أنفسنا ونقرأ تراثنا من خلال لندن.

والمؤلف هو شرف الدين بن أسد المصري، الذي عاش في مصر في القرن الثامن عشر الميلادي.

يقال عنه في كتب التراث الأدبي: «شيخ ما جن متهتك، طريف، ضليع، يصحب الكتاب ويعاشر الندماء ويشيب في المجالس على القيان»، نصوصه الأدبية التي تركها تقول أنه كان فقيرا ومعسرا وعاصر المجاعات الرهيبة التي مرت على مصر وعاصر غزوات التتار.

وقد أهتم شرف الدين بالطوائف والأزجال والموشحات، كان أسلوبه عاميا مطبوعا وخلط نوادره وأمثاله بأشعاره، إنه يمثل تيار مزج الأجناس الأدبية بعضها ببعض، وقدمها بأسلوب شعبي، وقد جذبت مؤلفاته «لطفاء المصريين» وهكذا اتجه في مؤلفاته إلى ما يهم الناس كالنوادر والأمثال والأشعار ويكتب كتابا عن المهن التي اشتهرت بها النساء. كان كل ما يهمه يدور حول الشخصية المصرية، ولذلك قيل المصري في آخر اسمه.

أما مكتشف الكتاب وناشره ومترجمه والذي أعاد كتابته فهو جون لويس يوركهارت، وهو رحالة سويسري عشق الشرق وجاء إليه وكرس سنوات عمره القليلة لدراسته جغرافيا وبشريا واجتماعيا.

عاش هذا الرحالة ما بين سوريا والعراق ولبنان وفلسطين ومصر وبلاد النوبة ثم الجزيرة العربية، وقد دفن في مصر على ضفاف النيل حسب رغبته في احتفال إسلامي مهيب.

وصل إلى حلب سنة ٩٠٨١، ومرض ومات سنة ٧١٨١ وكان قد ولد سنة ٤٨٧١ لأسرة تعاني من اضطهاد

الحكم الفرنسي فتكونت لديه قناعة في سن عمره المبكرة لأن يقضي عمره في خدمة الدول التي تعادي فرنسا، وكانت إنكلترا هي المكان المناسب.

في حلب تعلم اللغة العربية. ودون العديد من الرسائل والدراسات عن حياة الشرق، هي جزء هام من التاريخ الاجتماعي للشرق الأوسط في هذه الفترة، كتب عن تاريخ حلب والقبائل العربية في بادية الشام، وكتب عن جغرافية الصحراء وعادت البدو وشمائلهم، وله دراسات عن النوبة وجزيرة العرب وفي سنة ٦١٨١ أرسل إلى أوروبا وصفا للحجاز ومكة والمدينة.

آخر رحلاته كانت إلى سيناء وسانت كاترين، وكتب وصفا للرحلة، وفي هذه الفترة القصيرة كتب أبحاثا عن بدو الجزيرة العربية، وكتب مذكرات عن رحلته الحجازية، وترجم ما كتبه المقريزي عن جغرافية بلاد النوبة وتاريخها، ثم يعاود الكتابة عن سيناء ليؤكد أن سيناء ذات أهمية تاريخية بالغة في تاريخ البشرية كله، ويلحق بهذه الدراسة تعليقا عن طريق بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، ولعل أهم ما في رسائل يوركهارت ملاحظاته عن أحوال مصر

وحكوماتها، وقد كان يوركهارت صديقا للجبرتي وذكره الجبرتي في تاريخه الشهير في حوادث سنة ١٣٢١ من بعد هجرة الحبيب المصطفى، ويذكره باسمه الذي كان يعرف به في ذلك الوقت سيدي إبراهيم المهدي الانكليزي.

وقد تعرف على محمد علي باشا وكان له منه موقف عندما أراد محمد علي أن يمتحن إسلامه فدفع باثنين من علماء الحجاز الكبار في ذلك الوقت لكي يختبرا مدى علمه بالقرآن، وانتهى الأمر باقتناع الجميع بصحة إسلامه وحمل يوركهات وقتها لقب «حاج».

أما الكتاب فقد عثرو يوركهارت على مخطوط من ٩١ كراسة في مكتبة أحد الشيوخ في القاهرة، هي عبارة عن الأمثال الشعبية المصرية، وأهتم بها ونشرها في لندن، والغريب أن أحدا لم يهتم بهذا الأمثال رغم أن الكتاب طبع مرتين في انكلترا وترجم إلى الألمانية.

ويقول يوركهارت في مقدمة الكتاب أنه حذف إعداد من هذه الأمثال بعضها مقبول والآخر غير مهذب، لقد حذف البعض لأنه لا يتفق مع روح العصر، والآخر لأنه غير مهذب ويخدش الحياء وقد بلغ الذي حذفه منها ٩٢١ مثلا،

ويقول أنه سدس الأمثال كلها، فالأمثلة المنشورة ٢٨٧ مثلا شعبيا مصريا قيلت في أزمنة سابقة ولكنها دونت في أيام محمد علي، لست في حاجة إلى القول أن هذه الأمثال لها أهمية علمية نادرة، وتعتبر ذاكرة هامة لهذه الفترة في تاريخ مصر الاجتماعي والسياسي كله.

بقى أن أقول أن عنوان الكتاب الكامل هو: «الأمثال العربية» أو «شمائل وعادات المصريين المحدثين» كما تصورها الأمثال العربية في القاهرة، وهو آخر ما نشر من آثار الرحالة جون لويس يوركهارت.. أما عنوان الكتاب العربي الذي بين يدي فهم: «العادات والتقاليد المصرية في الأمثال الشعبية في عهد محمد علي» ومترجمة إلى العربية هو الدكتور إبراهيم أحمد شعلان، والكتاب يحمل رقم ٣٧ في سلسلة الآلف كتاب «الثاني» والتي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر.

تلك هي حكاية الكتاب نفسه، أما الأمثال نفسها فموعدنا معها الأسبوع المقبل...

٨١ مارس ٢٩٩١

على رأي المثل

...والأمثلة الشعبية في كتاب «العادات والتقاليد المصرية ومن الأمثال الشعبية في عهد محمد علي» وهو الكتاب الذي ألفه شرف الدين بن أسد المصري واكتشفه ونشره المستشرق جون لويس يوركهارت. هذه الأمثلة موجودة في الكتاب حسب الترتيب الأبجدي، والمثل الشعبي جزء من ضمير الشعب، وهو يلخص حكمة الأجيال في تعبير موجز وملخص عن الخبرة البشرية المقطرة بشكل شديد التركيز، وأهمية المثل الشعبي أن مؤلفه مجهول، وأن شرعية المثل الشعبي تأتي من ترديده وانتشاره في أوساط الجماهير، واللجوء إليه وقت الشدة كنوع من المخرج الذي لا بد منه.

نقرأ الآن هذه الأمثلة، وهي نفسها تكفي بدون أي تعليق عليها.

في حرف الألف: الصبر على الحبيب ولا فقده، الدين سواد الحزين، العادة طبع خامس، احتاجوا لليهودي، قال اليوم عيدي. ألف عشيق ولا مستحل، أم الجبان ما تحزن.

حرف الباء: بهلول الريف عيار، بيت تأكل منـه ولا تدعي عليه بالخراب.

حرف التاء: ترك الذنوب ولا طلب المغفرة، تمـوت الحداية وعنيها في الخطف. تاج المروءة التواضع.

حرف الثاء: ثوب العارية ما يدفي، ثلاثـة إذا اتفقـوا على بلد خربوها.

حرف الجيم: جور القط ولا عدل الفار، جواب النحس على طرف لسانه، جبت الأقرع يونسـني، كشـف راسـه

وخوفني. حرف الحاء: حزينة ما لهـا بيـت اشـترت مكنسـة

وزيت . حماتك مناقرة طلق بنتها، حبيبك من تحبه ولو كان قرد.

حرف الخاء: خير الزاد ما حصل في الفؤاد، أخـرج الطمع من قلبك ينحل القيد من رجليك.

حرف الدال: ديار مصر خيرهـا لغريبهـا، دمـوع الفواجر حواجر، الدراهم مراهم، دوا الدهر الصبر عليه.

حرف الذال: ذهبت الناس وبقى النسناس، ذل الغربـة يحميك من تيه الولاية.

حرف الراء: راح ينوضى غرق، رحم الله من زار وخفف.

حرف الزاء: زوجي يكذب على وأنا أكذب على الجيران، زوجي بيضور على عشيقي بشمعة.

حرف السين: سجود لقرد السوء في زمانه مصيبه.

حرف الشين: شابت لحيته طابت عشرته، شرط المرافقة، شماته الحساد تفتت الفؤاد.

حرف الصاد: صاحب الحاجة أعمى، صباح الفوال ولا صباح العطار، أصاب اليهودي لحما رخيصا فقال انه منتن.

حرف الضاد: ضاع عقله في طوله.

حرف الطاء: طاعة النسوان ندامة ، طلب المال بلا مال كحامل الماء في الغربال.

حرف العين: عين لا ترى قلب لا يحزن، عداوة العاقل ولا صحبة الجاهل، عمر الكذاب قصير، عناق الاجتماع أطيب من عناق الوداع.

حرف الغين: غابت السباع ولعبت الضباع. غبن الصديق ولا مصاحبة العدو، غضبه على طرف مناخيره.

حرف الفاء: في الزوايا خبايا، فقر وحماقة ما يتفق ، فر من الموت وفي الموت وقع.

حرف القاف: قال إيش مراد الأعمى، قال قفة عيون، إن لم ينظر يناطح، قالوا للفار خدلك رطلين شكر ووصل الكتاب للقط، قال الأجرة طيبة لكن فيه مشقة.

حرف الكاف: كالأبرة تكسي الناس وهي عريانة.

حرف اللام: لو أبصرت بختي دسته بالقدم، لولا الدموع احترقت الضلوع، لا تعيط في وجه الرزق يهرب.

حرف الميم: ما كل وجه يقال له مرحبا، ما يضيع حق وراه مطالب، من حسن لفظها بعتوها تخطب، من أرادك ريده ومن طلب بعدك زيده، ما أكثر خطابي وما أقل فراشي، من لا يصلحه الخير لا يصلحه الشر، من أكل مرقة السلطان أحترقت شفتاه ولو بعد حين.

حرف النون: الناي في كمي والريح في فمي، ناصح الأحمق عدوه.

حرف الهاء: همته عالية وبطنه خالية

حرف الواو: واحد قعد يتمنى طلوع الصبح، فلما طلع الصبح عمي.

حرف الياء: يوم لا هو لك لا تحسبه من عمرك، يكذب على الموتى ويكابر الأحياء، يا مشغول بهم الناس، همك لمن خليته، يشتهي الحرب ويكره اللقاء، ياما على القلوب دروب.

يبقى القول الأخير أن هذه الأمثلة مجرد اختيارات من الكتاب الملئ بالأمثال الشعبية.

٥٣ مارس ٩٨٩١

أحزان سودانية

مرة في الجنوب، ومرة أخرى في الشمال، وفي الحالين كان المصير يلح على كل سوداني، والمصير يلخص نفسه في سؤال حاد من كلمتين فقط.

- إلى أين؟!

ما أكثر السودانيين الأشقاء في مصر، يحضرون إلى القاهرة ليس كسياح قادمين من بلاد أخرى، ولكن على أساس أنهم من أبناء جنوب الوادي يسافرون إلى شماله، والسوداني، رغم ظروفه الصعبة، وربما القاسية، مستعد أن يدعوك إلى جلسة يدفع فيها آخر ما تبقى معه من المال بشرط أن تسمعه وهو يحكي عن هموم الوطن:

- خليني أقول لك يا زول.

على المقاهي، وفي المطاعم، وفي كل مكان يحملون معهم الوطن من الخرطوم إلى القاهرة، وأمام الرغبة الحارقة في الحكي لا أملكم سوى الاستماع.

يقول الأشقاء القادمون من الجنوب أن في بلادهم أربعين صحيفة تصدر كل صباح، عن أربعين حزبا سياسيا، وأن هذا الرقم لا يوجد حتى في أعتى الدول الديمقراطية، إن

الإنسان لو رغب في متابعة هذا العدد المهول من الصحف فإنه لا يجد المال أو الوقت الكافيين لذلك مساحات لانهائية من الورق الأبيض لا بد وأن تمتلئ بحكايات وأخبار ومقالات ومعارك.

والصادق المهدي يقول: «أنا أو الفوضى».

والعسكر تغاضوا عن جرح الجنوب الذي يتسع كل يوم، حيث تسقط المدن في أيدي من يحملون السلاح، وولوا وجوههم شطر العاصمة المثلثة ولديهم قول جديد: «الجيش هو الحل..».

والصادق المهدي يطلب من الجيش احترام الدستور والقانون، والجمعية التأسيسية تجتمع لتنفض، ومجلس رأس الدولة ينفض ليجتمع، والنقابات المهنية تحولت إلى جماعات ضغط تحاول الحصول على أي جزء من التورته، والأحزاب السياسية تتصارع ونميرى في منفاه بالقاهرة يتحرك لدرجة أنه أصبح يبحث عن أي صحفي لكي يدلي له بأي حديث عن ألأوضاع في السودان الآن.

خلفية كل هذه الأحداث معروفة، وهي مثل موج البحر، الجايات أكثر من الرائحات فيه، حرب الجنوب،

سنوات الجفاف والقحط التسع انتهت، لتبدأ السيول والأمطار الغزيرة والفيضانات التي أسلمت البلاد لكارثة بكل المقاييس.

وقبل أن تتوقف السيول والفيضانات جاء الجراد يحمل معه نذر كثيرة، يهدد الأخضر واليابس، ويبحث عن المحاصيل التي لم يعد لها وجود في الأرض.

جاء الجراد من الجو. وفي الوقت نفسه كان يزحف على الأرض، آلاف، وربما الملايين من المهاجرين، والهجرة أنواع، هناك من يهاجر من مدن وأماكن أخرى في السودان هربا ، الحرب أو هربا من الجفاف أو السيول، وهناك من هربوا إلى السودان من بلاد محيطة بها، تمر هي الأخرى بظروف صعبة وقاسية.

الجنيه السوداني يسجل تراجعات رهيبة، ورقم الديون هو الرقم الوحيد المرشح لأن يتضخم حتى الانفجار.

كل هذا يعاني منه الجسد السوداني المتعب الذي يتطلب من أجل علاجه جهودا أكثر من حكومة واحدة، ومع هذا فإن «الأفندية» في العاصمة المثلثة يمارسون كل يوم ترف وطن حل كل مشاكله ولم يبق له سوى الصراعات السياسية.

إن من ينظر إلى هموم السودان من الخارج، يتصور للحظة أن الوطن قد أكل وجبة دسمة، وبدأ يمارس عملية هضمها وخلال هذا الهضم الطويل، جاءت كل هذه التطورات فمن يتسلي قد يفعل أي شيء.

المحزن أن هذا يحدث بعد سنوات من الانتفاضة الشعبية، وفي كل وقت يتحدثون عن الديمقراطية الثالثةفي عمر الوطن، وعن الحرية التي لم تحدث من قبل في تاريخ البلاد، وكأن المواطن السوداني سيأكل في آخر النهار هذه الحرية وسيكسن فيها، وستتحول الحرية إلى سيارة يركبها وعمل يقوم به.

ما يصل إلى حد المأساة أن المواطن العادي يشعر في كل وقت أن همومه هي آخر ما يفكر فيه الجميع.

صخب ومناقشات وكتابات وخطب وإذاعات لدرجة أن المواطن العادي بدأ يتساءل: متي يدرك كل هؤلاء أن الصمت فيه من المزايا ما يفوق مليون مرة على كل الكلمات، مهما كانت هذه الكلمات.

إنه زمن الكلام، وعندما تهل أزمنة الكلام على الأوطان تتراجع أيام الفعل، مع أن السودان في أمس الحاجة لمن يفعله، ومن الأفضل أن يكون هذا الفعل في صمت.

وما يريده الإنسان العادي في السودان هو العمل ولكن بدون كل هذه الكلمات والأقوال.

١ أبريل ٢٩٩١

العواطلية

... «والعواطلي» مفرد «العواطلية» وهي من قاموس العامية المصرية الجميلة، وهي تطلق على من ليس له عمل يقوم به، يقولون: «آكل ومرعا وقلة صنعا» وقد شاعت هذه الكلمة في مصر الخمسينات والستينات، عندما كان الكل يعمل، والجميع يعرق، وكان العمل هو شرف الإنسان نفسه.

لم تكن الكلمة تطلق في هذا الزمان الجميل، على الإنسان الذي بدون عمل، ولكن على من لا يسعى إلى عمل ولا يبحث عنه ولا يرغب فيه.

كان يقال «العاطلون بالوراثة» وكان هذا التعبير يطلق على فلول الطبقات الاجتماعية، التي كانت عنوانا على ما قبل يوليو، وعندما جاءت الثورة. حاولت القضاء على هذا العصر، وإن كانت بعض علامات ورموزه ما زالت كما هي في الواقع لفترة من الوقت.

كانوا يقولون : «الإيد البطالة نجسة» أي أن يد الإنسان لا تتطهر سوى بالعمل والعرق، وفي هذا القول أكثر من دلالة على موقف الإنسان المصري من العمل وفكرة العمل نفسها.

تطل هذه التعابير من جديد على مصر الآن مرة أخرى، وإن كان الأمر قد اختلف تماما عن الخمسينات، والستينات.

علماء الاجتماع السياسي يقولون: إن البطالة هي قنبلة مصر الموقوتة، والتي أوشك فتيلها على الاشتعال.

الأرقام تقول أن خريجي الجامعات والمعاهد والمدارس الذين بدون عمل، يصل رقمهم إلى المليونين، أما الذين بدون شهادات فمن المستحيل حصر رقمهم، وأن في مصر مائة ألف خريج جديد كل سنة يبحثون عن فرص عمل ولا يجدونها.

نفس الأرقام تقول أنه في عصر عبد الناصر لم تكن توجد بطالة أصلاً وإن وجدت في بعض الحالات النادرة فهي لا تتعدي ٢% ولكنها في سنة ٦٧٩١ وصلت إلى ٧% أما مع مقدمات عقد الثمانينات فقد وصلت إلى ٠٣% من المصريين.

حكاية المصريين مع الحصول على العمل قصة أخرى، في مصر ما قبل يوليو، كان لا بد من وساطة وكانت هناك أعمال تناسب أولاد الذوات وأخرى لأولاد «الإيه»

وكانت هناك أيدي ناعمة لا تعمل سوى في الأعمال الذهنية، وهناك أيدي خشنة، تعمل في الأعمال القاسية، التي تتطلب قدرة جسمانية هائلة.

وفمي هذا المجتمع الطبقي. كان الحصول على الوظيفة لا بد له من وساطة ومحسوبية ورشوة في أكثر الأحيان.

وفي زمن يوليو الناصري، ارتفعت قيمة العمل، وأصبح متاحا لكل مصري، التزمت الدولة بتعيين كل من يحصل على شهادة والذي بدون شهادات، ما أن يؤدي الخدمة العسكرية، حتى يحصل على وظيفة حكومية، الناس متساوون أمام فرص العمل، مثل أسنان المشط، ولكن هذا النظام، على الرغم من نبل الهدف منه، إلا أنه أدي إلى مشكلتين، الأولى: أن الهدف من التعليم أصبح الحصول على شهادة، والغرض من الشهادة هو الوظيفة فقط، ولأن التعليم كان في جانب، والمجتمع في جانب آخر، فإن التعليم قام بتخريج ما لا يحتاجه المجتمع. في حين أن ما يبحث عنه الناس لا يتخرج من هذا التعليم.

المشكلة الثانية: أن البطالة التي اختفت من الشارع، ظهرت من جديد، ولكن في دواوين الحكومة هذه المرة، المتخصصون قالوا عن الظاهرة الجديدة «البطالة المقنعة» وحتى أقرب المسألة من الأذهان، فإن المصلحة الحكومية التي توجد فيها مقاعد تكفي لخمسة من الموظفين، فإن الذين يعملون فيها يصل عددهم إلى خمسمائة من الموظفين ، حيث لا يوجد مجرد مكان للجلوس، فضلا عن فرص العمل، لدرجة أنه كان يطلب من الموظفين عدم الحضور إلا في أول الشهر من أجل الحصول على المرتب فقط.

وجاء زمن السادات، حيث كان يجرى فك مصر وإعادة تركيبها من جديد، وارتفعت الأصوات تطالب بإلغاء التعيين عن طريق القوى العاملة، كان من الصعب الإلغاء الفوري، وكان مطلوب بعض التدريج خوفا من الغضب الشعبي العام.

ظهرت إعلانات تطلب وظائف، وأعفيت بعض المصالح من قبول التعيين عن طريق القوى العاملة، وهكذا وصلنا إلى الحال الذي يمكن القول فيه أنه لم يعين أحد منذ بداية عقد الثمانينات وحتى الآن.

عادت الوساطة، وظهرت المحسوبية، وهاجر المصريون إلى الخارج، وها نحن في انتظار خطرين، خطر العاطلين عن العمل في الداخل، وخطر احتمال عودة الذين يعملون في الدول العربية الشقيقة.

والعواطلي نبات سام، ينمو بعيدا عن دفء المجتمع كله، لا يشعر بأي انتماء حقيقي إزاء هذا المجتمع ومن فيه، إن العاطل يقول: أنا ومن بعدي الطوفان، ومعه بعض الحق فيما يذهب إليه.

لا حل سوى توفير فرص عمل جديدة، وامتصاص العاطلين عن العمل فعلا، وعلماء الاقتصاد يقولون لنا أن توفير فرصة عمل جديدة يتطلب من الدولة عشرين ألف جنيه مصري.

ومصر في حاجة إلى تدبير ٥٤٠ ألف فرصة عمل كل سنة، أي أنه مطلوب بحسبة بسيطة حوالي عشرين مليار جنية سنويا لخلق فرص عمل من أجل استيعاب الذين يصل سنهم إلى العمل، سنويا فقط، وليس في هذا أي اقتراب من العاطلين فعلا، سواء الذين نعرفهم - أي المليونين المتخرجين

من الجامعات أو المدارس – أو الذين لا نعرفهم وهم غير المتعلمين، وما أكثرهم.

المهم الآن، والعاجل في نفس الوقت، ألا تحمل كل سنة أعدادا جديدة، إلى أرقام العاطلين عن العمل في مصر.

فالعواطلي مشروع جديد لكل المتاعب التي يمكن أن يتعرض لها الوطن.

إن العواطلي وهو «اللامنتمي» الذي يبني موقفه من المجتمع على أساس من ظروفه الشخصية أولا وأخيرا.

٨ أبريل ١٩٨٩

رؤية الهلال

..«وفي رمضان، كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء، فجلس السلطان في الميدان، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة، وهنئوا السلطان بالشهر، ثم طلع الوزير يوسف البدري والزيني بركات بن موسى المحتسب، فطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رؤوس الحمالين مزفوفا، فطلعوا بأغنام وأبقار، كما جرت به العادة، فأخلع السلطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب، وكان يوما

مشهودا».. هذا ما يقوله بالحرف المؤرخ المصري المعروف محمد بن أحمد إياس الحنفي في تاريخه الشهير: «بدائع الزهور في وقائع الدهور» عن مجئ رمضان سنة ٩٢٠ من بعد هجرة الحبيب، إلى بر مصر:

وعن ليلة رؤية الهلال يقول:

- وأما في ليلة رؤية الهلال، حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية وحضر الزيني بركات بن موسى المحتسب، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس، ركب الزيني بركات بن موسى من

هناك، فتلقته الفوانيس الأكره والمناجنيق، والمشاعل والشموع الموقده، فلم يحص ذلك لكثرته، وأوقدوا له الشموع الدكاكين، وعلقوا له التنانير والأحمال الموقده بالقناديل، فارتجعت له القاهرة في تلك الليلة وكانت من الليالي المشهورة.

هكذا كان يجري الاحتفال برؤية هلال رمضان وقد كان الرسول - ﷺ لا يأمر بصوم رمضان، إلا بعد رؤية هلاله على التحقيق أو بشهادة الواحد العدل، فصامه مرة بشهادة أعرابي ومرة أخرى بشهادة بن عمر مكتفيا بمجرد الإخبار.

فإن لم ير الهلال، ولم يشهد أحد رؤيته أكمل شعبان ثلاثين يوما، ثم صام وأمر الناس بالصوم.

ذهب جعفر الصادق، وأبو حنيفة رضي الله عنهما ، إلى أنه تقبل شهادة الواحد في الغيم لاحتمال الهلال، أما في الصحو فلا يقبل إلا من جماعة لبعد خفائه، والأصل أن تكون الرؤية بعد غروب الشمس، وبلا واسطة لأن الشرع أناط الحكم بالرؤية بعد الغروب.

وقد نهى عن بدء الصيام في رمضان قبل رؤية الهلال، أي أنه يجب التماس هلال رمضان، و هلال شوال في ليلة الثلاثين من شعبان وليلة الثلاثين من رمضان، فإن رأوا هلال رمضان صاموا، وإن لم يروه أكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما.

وإن رأوا هلال شوال أفطروا، وإن لم يروه أكملوا رمضان ثلاثين يوما.

وإن تعذرت الرؤية بسبب الغيم والسحاب، فلا بأس من الاعتماد على قوله المنجمين، الذين يقيمون حساباتهم على منازل القمر وطرق الحساب المعروفة.

قال القشيري:

- ليست حقيقة الرؤية مشروطة في اللزوم. إذا علم بإكمال العدة أو بالاجتهاد. إن اليوم من رمضان، وجب الصوم.

وإن كان العلماء قد أختلف رأيهم في الاعتماد على الفلك، هناك من يرى إمكانية الاعتماد على الفلك، خاصة بعد أن كان العلم قد تقدم في زمانهم وصنعت المناظر المعظمة.

لكن الذين رأوا عدم الرجوع إلى الفلك، كانوا يخشون احتمالات الغلط.

ورؤية الهلال في بلد إسلامي ما تلزم باقي البلدان الأخرى.

وقد اختلف المؤرخون في أول من خرج لرؤية هلال رمضان من قضاة مصر، ذكر السيوطي في حسن المحاضرة إن أول من خرج إلى رؤية الهلال في مصر، كان القاضي، غوث بن سليمان الذي توفي في سنة ثمان وستين ومائة، وقيل إن أول من خرج من الناس إلى مسجد محمود، بالقرافة لرؤية هلال رمضان، كان القاضي إبراهيم بن محمد بن عبد الله.

الرحالة المعروف بن بطوطة يصف لنا في رحلته الأولى إلى مصر وذلك في سنة ٧٢٧ يوم ارتقاب هلال رمضان:

- وعادتهم فيه، أن يجتمع فقهاء المدينة، ووجهاؤها بعد العصر، من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي، ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة.

ثم يركب القاضي ويركب من معه أجمعون، ويتبعهم من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش، فينزل فيه القاضي ومن معه، يترقبون الهلال، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بجوانبهم الشمع وتصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون، هكذا فعلهم في كل سنة.

وأنا أقول عند قراءة هذا الكلام، في كتاب قرة العين في رمضان والعيدين لعلي الجندي، كانت أيام.

١٥ أبريل ١٩٨٩.

قرة العين في رمضان والعيدين

.. رمضان شهر الصوم والقراءة، وأحب قراءة في رمضان هي ما تكون عادة عن رمضان نفسه، وفي كل عام، ما أن يأتي رمضان، حتى أبدأ بالبحث عن كتب عنه، وأدهش لأن معظمة متناثر في بطون كتب الدين والتاريخ.

هذا العام لم أواجه الحيرة نفسها، لأنني وقعت على كتاب ضخم من جزأين هو «قرة العين في رمضان والعيدين» لمؤلفه على الجندي، وهذا الكتاب، يصلح أوراق اعتماد علاقة قارئ بكاتب فعلا.

فالكتاب موسوعة نادرة عن رمضان والعيدين في التاريخ الاجتماعي والأدب والشعر والفن والدين، منذ يوم الرسالة وحتى الآن.

ورمضان لا يذكر إلا ويقال معه الصوم، كأنه الجزء الثاني من اسمه.

قال الخليل: «الصوم قيام بلا عمل والإمساك عن الطعام..» .

وأكد أبو عبيدة: «كل ممسك عن طعام أو كلام فهو صائم».

والصيام لا يقال فقط عن الامتناع عن الطعام.

صام قضية يعني فراقها، والريح صامت أي ركدت وصامت الشمس، أي استوت في منتصف النهار، أرض صوام، أي أرض يابسة لا ماء فيها، وصام الفرس، أي قام على غير اعتلاف، صام النهار، أي قام قائم الظهيرة واعتدل.

والكلمة لها أشكال مختلفة: صائم، صومان، صوم، صوام، صيام، صيم.

والصيام في الشرع: إمساك مخصوص في زمن مخصوص بشرائط مخصوصة. وقد فرض الصوم في المدينة على المسلمين في شعبان في السنة الثانية من الهجرة.

ومن المحبب صيام الأيام الثلاثة الأولى من رجب والخامس عشر من شعبان، فلما جرى تمرين المسلين على الصيام، وخالطت بشاشته قلوبهم وتفتحت صدورهم لقبوله، فرض صيام رمضان ونسخ كل ما كان قبله ، أشكال الصيام..

ومدة الصيام شهر، والشهر مدة مشهورة، بإهلال الهلال والقمر، أو إذا ظهر وقارب الكمال واشتقاق الشهر من الأشهار، لأنه مشتهر ويشهر بالقمر.

وفيه علامة ابتدائه وعلامة انتهائه، وجمعه أشهر وشهور، والأول جمع قلة والثاني جمع كثرة.

وكلمة رمضان تعني الشهر الحر والرمض من شدة الحر، ويقال رمض يومنا أي اشتد حره، والرمض شده وقع الشمس على الرمل وغيره، وحر الحجارة من شدة الشمس.

والرمضاء: شدة الحر والأرض الشديدة الحرارة، وأرمضته الرمضاء: أي أحرقته ورمضت قدمه من الرمضاء: أي احترقت ورمضت الغنم: رعت من شدة الحر فقرحت أكبادها.

قال الزمخشري: «رمضان مصدره رمض، إذا احترق من الرمضاء، فأضيف إليه الشهر وأصبح علما».

وقال الخليل بن أحمد :«هو مأخوذ من الرميض وهو السحاب والمطر ما كان في آخر القيظ وأول الخريف».

وقال إنه الرمض وهو مطر يأتي قبل الخريف يطهر وجه الأرض من الغبار.

وقيل: «يرمض الذنوب، أي يحرقها بالأعمال الصالحة».

وقيل «لأن القلوب تأخذ من حرارة الموعظة والتفكير في أمر الآخر».

ومن المعروف أن أسم رمضان يعود إلى زمن الجاهلية، قبل مجئ الإسلام.

ويقال إن أول من سماه بهذا الاسم: هو قلاب بن مرة من قريش.

ولرمضان ستون اسما في الإسلام: يقال شهر الله – سبحانه وتعالى – وشهر الآلاء شهر القرآن، شهر النجاة، شهر الصبر، وشهر المواساة وكان يسمى المرزوق، واسمه من أسماء الله الحسنى وهو مشتق من معنى الغافر، أي يمحو الذنوب ويمحيها.

وهو التاسع من الشهور القمرية، ولا يقال رمضان إلا مقترنا بكلمة شهر، ومن أدب الكتاب، عندما وضعوا التاريخ الهجري في زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – وجعلوا أول السنة المحرم كانوا لا يكتبون في تواريخهم شهرا إلا مع رمضان والربيعين.

وجمع رمضان: رمضانات ورمضانون ورمضانين نصبا وجرا.

قال القزويني في «عجائب المخلوقات» نقلا عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن خامس رمضان الماضي، هو أول رمضان الآتي».

ويقول: «إنهم امتحنوا ذلك خمسين سنة فوجدوه صحيحا».

والله في شهوره شئون..

العدد الأخير من مجلة المستقبل

السنة ٣١ العدد ٥٣٦ السبت ٢٢

أبريل (نيسان) ٩٨٩١ من بعد ميلاد

السيد المسيح.